

الظواهر البلاغية في سورة المُك

دراسة تفسيرية تحليلية

د. رياض محمود جابر قاسم

أستاذ مشارك في قسم التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين

الجامعة الإسلامية - غزة

ملخص: يهدف هذا البحث إلى إبراز الظواهر البلاغية في سورة الملك، والتي تتمثل في ثلاث قضايا رئيسية.

أما القضية الأولى فهي الأساليب الخبرية وأغراضها البلاغية، وتحدث فيها الباحث عن الإظهار في موضع الإضمار، والتقديم والتأخير، والتعريف والتكبير، والتوكيد، والاتقاف، والتعبير عن الكثرة بلفظ التنثية، والتعبير عن الجمع بلفظ المفرد، وخطاب المفرد بلفظ الجمع، وعطف الفعل على الاسم. وأما القضية الثانية فهي الأساليب الإنشائية وأغراضها البلاغية، وتحدث فيها الباحث عن الاستفهام، والأمر، والمدح والذم، والتمني.

وأما القضية الثالثة فهي الصور البيانية وأغراضها البلاغية، وتحدث فيها الباحث عن براعة الاستهلال، والتشبيه، والمجاز، والكنائية، والإيجاز بالحذف، والبديع (طباق، جناس، مقابلة، سجع). وقد أبرز الباحث الأغراض البلاغية وأسرارها لكل نوع من أنواع الظواهر البلاغية الموجودة في سورة الملك. وختم البحث بأهم النتائج والتوصيات.

Rhetorical Features in Surat Al Mulk

Abstract: This research aims to highlight the rhetorical features in Surat Al Mulk, which consists of three main issues.

The first one is about the use of informative styles and their rhetorical purposes, where the researcher discussed Ith-haar fee mawdi al-idmaar, fronting and pre-posing, use of definite and indefinite nouns, assertion, rhetorical twist, indicating abundance by use of duality, expressing pluralism by use of singular forms, use of plural forms in addressing the singular, apposition of verbs with nouns.

The second issue is the compositional styles and their rhetorical purposes, where the researcher discussed questions, use of command, praise and dispraise, and the wish.

The third issue is the figures of speech and their rhetorical purposes, where the research explored the skillful use of initiation, simile, metaphor, metonymy, brevity by deletion, and rhetorical devices (antithesis, alliteration, and assonance)

The researcher highlighted the rhetorical purposes and secrets of each of the rhetorical features in Surat Al Mulk. In the end, the researcher drew the most important findings and recommendations.

الحمد لله رب العالمين، [أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا] {الكهف:1}، وتحدى فصحاء العرب على أن يأتوا بشيء من مثله فعجزوا، [قُلْ لَنْ يَجْتَمِعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا] {الإسراء:88}، والصلاة والسلام على رسول الله سيد البلغاء، وأفصح العرب لساناً، وأحكمهم بياناً، وأفضلهم كلاماً، أما بعد:

فإن التعبير البياني للقرآن الكريم يشتمل على كثير من الأسرار البلاغية، والتوجيهات التربوية، مما يستدعي بل يستوجب الوقوف بتأنٍ وتمعن أمام النصوص والتعبيرات القرآنية من أجل إبراز الأغراض البلاغية الكامنة في ثنايا تلك النصوص والتعبيرات القرآنية، وبيان الأسرار التي دل عليها الأسلوب القرآني في موضعه.

ومن أهم أهداف التحليل البلاغي الوقوف على خصوصية أنواع الخطاب المختلفة بإجراء التتبع الوصفي للظواهر البلاغية في النص أو النصوص موضوع الدراسة، ثم إن عملية التتبع تمر بمراحل وهي: رصد الظواهر البلاغية وتصنيفها، ثم تحليل تلك الظواهر البلاغية، ثم تحليلها وربطها بالغاية والسياق.

وقد قام الباحث بعمل دراسة تطبيقية على سورة الملك، واجتهد في بيان بعض الظواهر البلاغية الكامنة في التعبير البياني لهذه السورة؛ إذ إن النص القرآني أعظم من أن يحيط بكل أغراضه ومراميه مخلوق.

خطة البحث: اشتمل البحث على مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع

المبحث الأول: الأساليب الخبرية وأغراضها البلاغية في سورة الملئك

ويشتمل على تسعة مطالب:

المطلب الأول: الإظهار في موضع الإضمار

المطلب الثاني: التقديم والتأخير

المطلب الثالث: التعريف والتتكير

المطلب الرابع: التوكيد

المطلب الخامس: الالتفات

المطلب السادس: التعبير عن الكثرة بلفظ التنثية

المطلب السابع: التعبير عن الجمع بلفظ المفرد

المطلب الثامن: خطاب المفرد بلفظ الجمع

المطلب التاسع: عطف الفعل على الاسم

المبحث الثاني: الأساليب الإنشائية وأغراضها البلاغية في سورة الملئك

ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: الاستفهام

المطلب الثاني: الأمر

المطلب الثالث: المدح والذم

المطلب الرابع: التمني

المبحث الثالث: الصور البيانية وأغراضها البلاغية في سورة الملئك

ويشتمل على تسعة مطالب:

المطلب الأول: براعة الاستهلال

المطلب الثاني: التشبيه

المطلب الثالث: الاستعارة التصريحية

المطلب الرابع: الاستعارة التمثيلية

المطلب الخامس: المجاز العقلي

المطلب السادس: الكناية

المطلب السابع: الإيجاز بالحذف

المطلب الثامن: البديع : طباق، جناس، مقابلة، سجع

المطلب التاسع: الأسلوب الحكيم

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات

المبحث الأول

الأساليب الخبرية وأغراضها البلاغية في سورة الملئك

ويشتمل على تسعة مطالب:

المطلب الأول: الإظهار في موضع الإضمار

يُعدُّ هذا المبحث من أهم مباحث علم المعاني، حيث يُذكر في باب (أحوال المسند إليه)،

وتحت عنوان خروج الكلام عن مقتضى الظاهر.

وحقيقة الأمر أن للمسند إليه ضوابط وقواعد ينبغي أن لا يخرج عنها، ولكنه حين يخرج

عن تلك القواعد والأصول إنما يخرج لفائدة بلاغية تراد من هذا الخروج.

ومن جملة ذلك أنه حين يُذكر الاسم ظاهراً، وأريد الحديث عنه لا يُكرَّر وإنما يوتى

بضمير يعود عليه؛ ليتم به الكلام، وتقع به الفائدة، وهذا هو الأصل.

يقول الزركشي: "والأصل في الأسماء أن تكون ظاهرة، وأصل المُحدِّث عنه كذلك، والأصل أنه إذا ذُكر تانياً أن يُذكر مُضمراً للاستغناء عنه بالظاهر السابق"⁽¹⁾.
لكن يوجد أحوالٌ يعاد فيها ذكر الاسم الظاهر، ولا يؤتى بالضمير فيكون إظهاراً للاسم في موضع يصح فيه الإضمار والإتيان بالضمير.

وقد أشار الألوسي إلى فائدة من فوائد الإظهار موضع الإضمار، حيث يقول: "والعرب إذا فحمت شيئاً كررته بالاسم الذي تقدّم له"⁽²⁾.

ولعل العلماء قد فطنوا لهذا المدخل، وتنبهوا إليه، فلم يألوا جهداً في تبين أغراض الإظهار وفوائده البلاغية، فقد عد الزركشي مجموعة من الأغراض البلاغية للخروج على خلاف الأصل في الإظهار وأهمها⁽³⁾:

1- قصد التعظيم: كقوله تعالى: [....وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ] {البقرة:282} قال أبو السعود: "كرر لفظ الجلالة في الجمل الثلاث لإدخال الروعة وتربيبة المهابة وللتبنيه على استقلال كل منها بمعنى على حياله، فإن الأولى حث على التقوى، والثانية وعد بالإنعام، والثالثة تعظيم لشأنه تعالى"⁽⁴⁾.

2- قصد الإهانة والتحقير: كقوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ] {النور:21} حيث أعاد ذكر لفظ الشيطان مظهراً.

3- الاستنذاء بذكره: كقوله تعالى: [مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا] {فاطر:10}، وقوله تعالى: [وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ] {الزمر:74}، ولم يقل: "منها" ولهذا عدل عن ذكر الأرض إلى الجنة وإن كان المراد بالأرض الجنة.

4- زيادة التقدير: كقوله تعالى: [وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ] {الإسراء:105}، وقوله: [اللَّهُ الصَّمَدُ] {الإخلاص:2} بعد قوله: [اللَّهُ أَحَدٌ] {الإخلاص:1}.

5- إزالة اللبس حيث يكون الضمير يوهم أنه غير المراد: كقوله تعالى: [قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ] {آل عمران:26}، لو قال: "تؤتيه" لأوهم أنه الأول،

(1) البرهان في علوم القرآن (484/2).

(2) روح المعاني (334/1).

(3) البرهان في علوم القرآن (485/2-495).

(4) إرشاد العقل السليم (1/271).

وقوله تعالى: [الظَّالِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ] {الفتح:6}، كرر السوء لأنه لو قال: (عليهم دائرته) لالتبس بأن يكون الضمير عائداً إلى الله تعالى .

6- تربية المهابة وإدخال الروع في ضمير السامع: بذكر الاسم المُقتضي لذلك كما يقول الخليفة لمن يأمره بأمر: أمير المؤمنين يأمرك بكذا مكان: أنا أمرك بكذا، ومنه قوله تعالى: [الحاقه * ما الحاقه] {الحاقه:1،2}، وقوله: [إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها] {النساء:58} .

7- قصد تقوية داعية المأمور: كقوله تعالى: [فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ] {آل عمران:159}، وحين قال: (على الله) لم يقل: "إنه يجب" أو "إنني أحب" تقوية لداعية المأمور بالتوكل بالنصريح باسم المتوكل عليه.

8- تعظيم الأمر: كقوله تعالى: [هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا * إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا] {الإنسان:1-2} ولم يقل خلقناه للتنبيه على عظم خلق الإنسان.

9- أن يفصد التوصل بالظاهر إلى الوصف: كقوله تعالى: [فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته] {الأعراف:158}، بعد قوله في صدر الآية: [إنني رسول الله إليكم جميعا]، قال: (فآمنوا بالله ورسوله) دون "فآمنوا بالله وبني" ليتكّن من إجراء الصفات التي ذكرها من النبي الأمي الذي يؤمن بالله فإنه لو قال: وبني لم يتكّن من ذلك لأن الضمير لا يوصف ليعلم أن الذي وجب الإيمان به والاتباع له هو من وصف بهذه الصفات كائنا من كان أنا أو غيري إظهاراً للصفة ويُعدّ من التعصب لنفسه.

10- قصد العموم: كقوله تعالى: [فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيّفوهما فوجدّا فيها جدارا يريده أن ينفص فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا] {الكهف:77} ولم يقل استطعماهم للإشارة بتأكيد العموم، وأنهما لم يتركا أحداً من أهلها إلا استطعماه وأبى، ومع ذلك قابلاهم بأحسن الجزاء، وفيه التنبيه على محاسن الأخلاق، ودفع السيئة بالحسنة.

12- قصد الخُصوص كقوله تعالى: [وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي] {الأحزاب:50}، ولم يقل: "لك" لأنه لو أتى بالضمير لأجد جواره لغيره كما في قوله تعالى: (وبنات عمك) فعُدل عنه إلى الظاهر للتنبيه على الخُصوصية وأنه ليس لغيره ذلك.

13،14- الإشعار بعلّة الحكم وتقوية استقلال الجملة: أما ما يقصد بالإشعار بعلّة الحكم فهو أن الختم يأتي تعليلاً لمعنى سابق في الآية كقوله تعالى: [ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون] {الأنعام:21} فلم يقل (لا يفلحون) حيث صرح بالظلم تنبيهاً على أن علة عدم فلاحهم هو الظلم.

وأما ما يقصد باستقلال الجملة فهي أن تكون كاملة بحيث لو اقتطعت من السياق الذي هي فيه، يظل المعنى فيها على تمامه وكماله، ويحسن استخدامها في مواطن خارج السياق كقوله تعالى: [**وَأَنفُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**] {المائدة:7}، قال أبو السعود: "وأظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقوية استقلال الجملة"⁽¹⁾.

فالختم (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) مقطع مستقل المعنى، واضح المدلول مشحون بكل الرموز الذهنية المرتبطة بألفاظه.

ولو أننا أضمرنا وقلنا (إنه عليم بذات الصدور) فهي جملة ليست مستقلة، حيث لا يحسن اقتطاعها من السياق إلا ووضعها في سياق مثله، فلا تقوم بذاتها بغير قرينة تشير إلى مدلولها، لاحتمال أن يكون الضمير عائداً على غير مرجعه الأصلي، اللهم إلا ما يشير إليه تقديم المتعلق واستحالة أن يكون لغير الله.

والجدول الآتي يوضح المواضع الستة التي جاء فيها الإظهار في موضع الإضمار:

رقم الآية	الآية	مسلسل
3	مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ	1
16	أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ	2
17	أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا	3
20	إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ	4
27	سَيَبِئْتُ وُجُوهَ الَّذِينَ كَفَرُوا	5
28	فَمَنْ يُجِبرِ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ	6

نماذج لوضع المظهر موضع المضمرة وبيان الأغراض البلاغية التي تترتب على ذلك:

أولاً: قال تعالى: [**الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ**] {الملك:3}، تُبين الجملة الأولى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا) مظهراً من مظاهر قدرة الله -عز وجل- في الخلق، حيث خلق سبع سموات فوق بعضها، وفي الجملة الثانية (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ) ينفي تعالى وجود أدنى اختلاف في هذا الخلق، لكن نجد أنه -تعالى- ذكر سبب سلامتهن من التفاوت: وهو أنه خَلَقَ الرَّحْمَنَ، وأنه بباهر قدرته هو الذي يَخْلُقُ مِثْلَ ذَلِكَ (فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ) ولم يقل (ما ترى فيهن) فقد سبق ذكر السموات في الجملة الأولى، ولم يذكر تعالى الضمير الذي يعود عليها في الجملة الثانية، وهذا يُسمى وَضْعُ الاسم الظاهر موضع الضمير، وفائدة ذلك التعظيم، قال أبو السعود: "وضع فيها (خَلَقَ الرَّحْمَنَ) موضع الضمير

(1) إرشاد العقل السليم (12/3).

للتعظيم والإشعار بعلة الحكم، وبأنه -تعالى- خلقها بقدرته القاهرة رحمةً وتفضلاً، وبأنَّ في إبداعها نِعماً جليلاً⁽¹⁾.

ثانياً وثالثاً: قال تعالى: [أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ] {الملك: 16 ، 17} ، الآيتان هنا تُتكران على الكفار سوء اعتقادهم، بأنهم آمنون من أن يأمر الله تعالى ملائكته بإيقاع العذاب عليهم.

والاسم الموصول (مَنْ) في الآيتين هو من قبيل الإظهار في موضع الإضمار، إذ إنَّ الآية التي تسبقها ذكرت الضمائر العائدة إلى لفظ الجلالة (الله) المفهوم من سياق الآيات السابقة، قال تعالى:

[هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ دَلُولًا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ] {الملك: 15}

فلم يقل تعالى: أَمِنْتُمُوهُ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ، أم أَمِنْتُمُوهُ أَنْ يَرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا، وإظهار ذلك لغرض بيان عظيم تصرفه تعالى في ملكه، لكن الإشارة إليه تعالى بهذا الاسم الموصول فيه من المتشابه الذي يُفهم من ظاهر اللفظ معنى حلول الله في المكان، وهذا بالطبع لا يليق به سبحانه وتعالى.

رابعاً: قال تعالى: [أَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ] {الملك: 20}، يُبين مطلع الآية عجز الأصنام وحفارتها من أن تدفع شيئاً عن الكافرين، وجاءت فاصلة الآية مقررة ومبينة أنَّ شأن كل الكافرين هو الغرور، فكلهم في غفلة عن توقع نزول عذاب الله بهم، لأنَّهم معتزون في الاعتماد على أصنامهم بأنها تنفعهم وقت الشدة وتدفع عنهم البلاء، وجاءت فاصلة الآية (إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ) أسلوب حصرٍ وقصر بغرض قلب اعتقادهم أنهم في مأمن من الكوارث بحماية آلهتهم، ففائدته إبطال هذا الاعتقاد الذي لا أساس له في الواقع، و(ال) في (الكافرون) للاستغراق أي كل الكافرين، والجملة الاسمية تدلُّ على دوامهم على هذا الحال فهذا ديدنهم، و(الغرور) هو ظنُّ النفس وتوهمها وقوع أمر نافع لها وهو خلاف الواقع، وحرف الجر (في) يفيد شدة تلبسهم بالغرور وكأنَّ الغرور محيط بهم من كل جانب.⁽²⁾

وجاء الإظهار للفظ (الكافرون) لبناء جملة مستقلة ذات إحياء قوي وفعال، لتجري الجملة مجرى المثل أو الحكمة⁽³⁾ في بيان ديدن الكافرين، وكذا فائدة الإظهار بيان العلة التي أوصلتهم إلى

(1) إرشاد العقل السليم (274/6-275).

(2) انظر: التحرير والتنوير (42/29-43).

(3) البرهان في علوم القرآن (2/ 485 - 495).

الغرور وهي الكفر، قال أبو السعود: "والإظهار في موقع الإضمار لزمهم بالكفر، وتعليل غرورهم به" (1).

خامساً: قال تعالى: [فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ] {الملك:27}، تخبر الآية عن حال المشركين المعاندين حين يرون وعد الله تعالى قد حلَّ بهم، حيث تكون وجوههم قد كَلَّحَتْ، وهنا قال تعالى (رأوه) وقال بعدها (وجوه الذين كفروا) ولم يقل (وجوههم) أي وضع الموصول موضع ضميرهم وذلك لفائدة بلاغية وهي ذمهم بالكفر، وبيان العلة التي استحقوا بها المساءة. (2)

سادساً: قال تعالى: [قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمْنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ] {الملك:28}، الخطاب هنا للمشركين، أي أخبروني إن أهلكني الله ومن معي من المؤمنين بالعذاب، أو رحمنا فلم يعذبنا، فَمَنْ ذا الذي ينجيكم مع كفركم من العذاب؟ فلا أحد ينجيكم سواء أهلك الله الرسول ومن معه من المؤمنين كما كان يتمنى الكفار أو أمهلهم. (3)

وقد ذكر تعالى (أرأيتم) خطاباً لمشركي مكة، وفي خاتمة الآية لم يقل تعالى (فَمَنْ يجيركم) بل قال (فَمَنْ يجير الكافرين) وفي هذا الإظهار للفظ (الكافرين) إشارة إلى أنهم كافرون وأنَّ علة الحكم عليهم بالعذاب هي الكفر، و(ال) في (الكافرين) للجنس أي المخاطبين من مشركي مكة وغيرهم ممن يأتي بعدهم. (4)

قال أبو السعود: "ووضع (الكافرين) موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالكفر، وتعليل نفي الإنجاء به" (5).

المطلب الثاني: التقديم والتأخير

إن (التقديم والتأخير) في اللغة العربية يقف دليلاً ساطعاً على ما تكتنزه اللغة العربية من طاقات إيحائية، ومستويات تعبيرية، فلما توجد في لغة من اللغات. إذ إنَّ طاقات الإيحاء ومستويات الدلالة تتماوج مع حركة اللفظ في الجملة من حيث تقدمه أو تأخره، بحيث يكون المعنى تبعاً للفظ، وحالة استقراره في الجملة.

(1) إرشاد العقل السليم (280/6).

(2) انظر: إرشاد العقل السليم (281/6).

(3) انظر: فتح القدير، للشوكاني (371/5).

(4) انظر: روح المعاني (150/21).

(5) إرشاد العقل السليم (282/6).

"إنه بابٌ كثيرُ الفوائد، جمُّ المحاسن، واسعُ التصرف، ولا تزلُ ترى شعراً يروك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنتظر فتجد سببَ أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان"⁽¹⁾.

فمنذ اكتشاف الجرجاني، نظرية النظم القائمة على رصد حركة المعنى في الجملة وفق ترتيبات قواعد علم النحو، والدراسات تترى في هذا المجال محاولةً أن تقف على أسرار الجمال، ومواطن الإعجاب فيه.

وقد اكتفى سيوييه في تعليقه ظواهر التقديم والتأخير في الجملة بالناية والاهتمام.⁽²⁾ صحيح أن العناية والاهتمام من جماليات التقديم والتأخير، لكن لا يمكن أن نقصر الغرض البلاغي للتقديم والتأخير على ذلك فقط.

وقد قسم الجرجاني التقديم والتأخير إلى قسمين:

1- تقديم على نية التأخير: "وذلك في كل شيء أقرته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، كالمفعول إذا قدمته على الفاعل (ضرب عمراً زيد)"⁽³⁾ وكذلك فيما يختص بمتعلقات العامل، كتقديم المفعول به على فعله، وتقديم الحال على فعله، وتقديم الظرف والجار والمجرور على فعلهما، وتقديم الخبر على المبتدأ، وهو في الغالب يفيد الاختصاص"⁽⁴⁾.

2- تقديم لا على نية التأخير: "ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم إلى حكم، وتجعل له باباً غير بابه، وإعراباً غير إعرابه، وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خبراً له، فتقدم تارة هذا على ذاك كقولك: (ضربت زيداً) و(زيداً ضربته)"⁽⁵⁾.

فهو إذن تقديم ألفاظ بعضها على بعض في غير عامل، كتقديم لفظ على آخر، في موضع، ثم تأخيره في موضع آخر.

واعتبر العلوي أن أحد أغراض التقديم والتأخير مراعاة رؤوس الآيات أي السجع،⁽⁶⁾ وكذلك وكذلك كثير من المفسرين يقولون بالمشاكله ومراعاة الفواصل ويقصدون رؤوس الآيات.

(1) دلائل الإعجاز، (ص: 77).

(2) الكتاب، لسيوييه (6/1).

(3) دلائل الإعجاز، (ص: 77).

(4) التعبير القرآني، لفاضل السامرائي، (ص: 49).

(5) دلائل الإعجاز، (ص: 77).

(6) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليجيي بن حمزة العلوي (71/2).

لكن كثيراً من البيانين لا يقولون بالسجع⁽¹⁾، ومن المفسرين من يرى أن هذا لا يليق بكلام الله -تعالى- حيث يقول الرّازي: "وإعجاز القرآن ليس في السجع، وذلك لأن الشاعر يختار اللفظ الفاسد لضرورة الشعر والسجع، ويجعل المعنى تبعاً للفظ، والله -تعالى- بين الحكمة على ما ينبغي، وجاء باللفظ على ما ينبغي"⁽²⁾.

والذي يراه الباحث أن هذا التعليل للتقديم والتأخير -مراعاة لرؤوس الآيات- أمر غير مقبول، إذ إنه من غير المعقول أن الله -تعالى- قدّم وأخّر من أجل السجع، فكلام ربّ العالمين لا يخضع لضرورة، ولا يضطرّ إلى شكلٍ بعينه. فكل كلمة من كلمات القرآن الكريم في موضعها التي هي فيه معجزة من ناحيتين، من ناحية المبنى ومن ناحية المعنى الذي اشتملت عليه. لذا يجب إمعان النظر والتأمل في جماليات التّركيب في نَظْم القرآن، ليتسنى كشف مواطن جماليّة أخرى، فمن تمام الإعجاز أن يجتمع الأمران معاً، أمر سلامة المعنى ودقته وتماحه مع ما يحمله من وجوه بلاغية مختلفة يشعّ بها اللفظ، وأمر مراعاة جماليّات سبك العبارة، وعذوبة قفل الآية بها مراعاة لإيقاع آياتٍ سبقتها، وآياتٍ تتلوها.

والجدول الآتي يبين المواضع التي جاء فيها تقديم وتأخير، وهي خمسة عشر موضعاً:

رقم الآية	الآية	مسلسل
1	الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ	1
1	وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ	2
4	يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِبًا وَهُوَ حَسِيرٌ	3
5	وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ	4
6	وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ	5
7	سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا	6
8	كُلَّمَا أَلْقِي فِيهَا فَوْجٌ	7
12	لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ	8
15	هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا	9
15	وَأَلِيهِ النُّشُورُ	10
17	أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا	11

(1) انظر: الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني، (ص:250).

(2) مفاتيح الغيب (82/15).

19	إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ	12
24	وَالِيَهُ تُخْشَرُونَ	13
27	وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ	14
29	قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا	15

نماذج للتقديم والتأخير وبيان الأغراض البلاغية التي تترتب على ذلك:

أولاً: قال تعالى: [تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] {الملك:1}

أي تعظم وتعالى وتمجد الذي بيده ملك الدنيا والآخرة، يتصرف فيها بما شاء، وهو على ما يشاء فعله ذو قدرة مطلقة، لا يمنعه أو يعجزه شيء. (1)

وقد تقدم شبه الجملة -المسند- (بيده) على المبتدأ -المسند إليه- (الملك) وذلك لإفادة الاختصاص، أي الملك كائن بيده لا بيد غيره، وتقدمت شبه الجملة (على كل شيء) على متعلقها (قدير) وذلك لإفادة عموم القدرة على كل شيء واختصاصه تعالى بذلك، فلو كان تركيب الجملة على الأصل بلا تقديم (وهو قدير على كل شيء) فكان فيها إثبات معنى القدرة أولاً ومن ثم إثبات شمولية هذه القدرة على كل الأشياء ثانياً، أما تقديم شبه الجملة (على كل شيء) ففيه إثبات الشمولية لمعنى القدرة ومن ثم إسنادها لله -تعالى- واختصاصه بهذه الصفة دون غيره، فالأذهان قد تتوهم أن هناك من يشارك المولى في صفاته، فيأتي التقديم والتأخير ليزيل هذا الوهم، ويثبت معنى الصفة لله بشمولها وكمالها، فهو إذن الذي يستحق أن يُفرد بالعبودية والإلهية، وفي ذلك إشارة إلى إبطال دعاوى المشركين في ألوهية أصنامهم. (2)

ثانياً: قال تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ] {الملك:12}

تتحدث الآية عن حال المؤمنين يوم القيامة، الذين كلما ازدادوا في الطاعة ازدادوا خشية من الله، [وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ] {المؤمنون:60} فهم يخافون ألا تقبل أعمالهم، ويتوقعون العقوبة، هذا كله وهم لا يرون الله ولا يرون عقابه، ولا أحد يراهم في خلواتهم، فهم لا يقدمون على معصيته تعالى ولا يقصرون فيما أمر به، فجزاء ذلك كله المغفرة والأجر الكبير في الآخرة، فلهم المغفرة لذنوبهم وبالتالي يقبهم عذاب الجحيم، ولهم في الجنة من النعيم المقيم والقصور والحدائق والولدان ورضا الرحمن. (3)

(1) انظر: جامع البيان (504/23).

(2) انظر: التحرير والتنوير (11/29)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (ص:251).

(3) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (ص:876).

وقد تقدم الجار والمجرور (لهم) المتعلق بالخبر المحذوف وذلك للاهتمام بالمؤمنين، ولأنَّ المبتدأ (مغفرة) جاء نكرة فلا يجوز البدء به، والتقدير (مغفرة وأجر كبير كائنان لهم)، وقد تقدّمت أيضاً المغفرة على الأجر الكبير، وذلك تظميماً لقلوبهم، إذ إنّ الخشية محلها القلب، وجاءت بعدها البشارة بالأجر العظيم، هذا على قاعدة تقديم التخلية على التحلية، أو دفع الضرّ مقدّم على جلب النفع.⁽¹⁾ أي أنه لما كانت الخشية مشيرة إلى خشيتهم من عقاب الله على الذنوب، وأن همّهم أن يستريحوا منها قدّم المغفرة، أي أنّ الله محاها وسترها لهم، ولما كانت الخشية متضمنة الخوف، وأنّ الذي يخشى الله تعالى يجد في الدنيا من الآلام والشدائد، عقب بالأجر الكبير ليُدخل السرور عليهم، والسرور يكون بالإعطاء والثواب فكان جزاؤهم الأجر الكبير، فالفاصلة بهذا التركيب تبين تفضّل وكرم الله تعالى على عباده على خشيتهم له بما تتضمنه الخشية من المعاني، فتصعّر أمام هذا العطاء كل المصائب والشدائد.⁽²⁾

ثالثاً: قال تعالى: [هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ] {الملك:15}

هذا امتنان من الله ﷻ على عباده بأنّ ذلّل لهم الأرض، يسعون في نواحيها وجوانبها، ويأكلون من رزق الله الذي أخرجهم لهم من الأرض، ثم يُذكّرهم تعالى بأنّ نشورهم إليه، والنشور يكون من القبور بالبعث بعد الموت، ليسألهم عن شكر هذه النعمة، التي هي علامة دالة على قدرته ﷻ في الخلق، وتصرفه المطلق في ملكه.⁽³⁾

وقد تقدم الجار والمجرور (لكم) على المفعول به (الأرض) لإظهار هذا الامتنان، وأنه -تعالى- مهتمّ بعباده لا يهملهم، قال أبو السعود: "وتقديم (لكم) على مفعولي الجعل مع أنّ حقه التأخر عنهما للاهتمام بما قدّم، والتشويق إلى ما أُخّر، فإنّ ما حقه التقديم إذا أُخّر لا سيما عند كون المقدّم مما يدل على كون المؤخر من منافع المخاطبين تبقى النفس مترقبيةً لوروده، فيتمكن لديها عند ذكره فضل تمكن"⁽⁴⁾.

وفي قوله تعالى (وإليه النشور) قد تقدم الجار والمجرور المتعلق بالخبر المحذوف على المبتدأ، فالتقدير: النشور صائرٌ إليه، وذلك لإفادة الاختصاص.

(1) انظر: التحرير والتنوير (29/29).

(2) انظر: نظم الدرر (75/8).

(3) انظر: تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (295/8).

(4) إرشاد العقل السليم (278/6).

رابعاً: قال تعالى: [أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ] {الملك:19}

جاءت الآية بمزيد من الدلائل على قدرته تعالى، وأنه المتصرف في هذا الكون كيفما يشاء، فأنكرت الآية على المشركين عدم انتفاعهم بأحوال الطير في نظام حركاتها في حال طيرانها، فحال هذه أقوى دلالة على عجب صنع الله، فالذي يمسكهن هو الرحمن وذلك لعموم علمه وحكمته، و(البصير) مشتق من (البصيرة) بمعنى العليم، وليس المراد منه الوصف الذي هو من الأسماء الحسنى، فالبصير خبر عن الله تعالى لا وصف، وتقدمت شبه الجملة (بكل شيء) على متعلقها (بصير) وذلك لإفادة القصر، وهو قصر قلب رداً على من زعم أن الله لا يعلم كل شيء، حتى قال بعضهم لبعض أسروا قولكم حتى لا يسمعنا الله.⁽¹⁾

خامساً: قال تعالى: [قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ] {الملك:29}

بينت الآية أن الله تعالى متصف بالرحمة وقد آمن به النبي ﷺ ومن معه من المسلمين، وتوكلوا عليه، وفي ذلك تعريض باختصاص الرحمة بمن آمن بالله تعالى وانتفاءها عن الكافرين به، فحقيقة الكافرين أنهم في ضلال مبين، إذ إنهم جحدوا اسم الرحمن وكفروا به وتوكلوا على أصنامهم، وقد تأخر هنا مفعول (أمننا) على الأصل، وتقدم مفعول (توكلنا) ذلك أن جملة (أمننا به) جاءت إثر ذكر الكافرين في خاتمة الآية التي تسبقها (فمن يجير الكافرين من عذاب أليم) وذلك تعريضاً بالكافرين، وفي الجملة الثانية تقدم المتعلق (عليه) على متعلقه (توكلنا) وذلك من أجل إفادة الاختصاص، فالمعنى: قل لهم يا محمد إن الذي ينجي من العذاب الأليم هو الرحمن، الذي آمننا به ولم نكفر به كما كفرتم، وتوكلنا عليه خاصة دون غيره ولم ننكل على ما أنتم تتكلون عليه من الجاه والمنصب والمال، فستعلمون عن قريب أي الفريقين نحن أم أنتم في ضلال واضح.⁽²⁾

المطلب الثالث: التعريف والتنكير

أولاً: التعريف

قال الجرجاني: "التعريف ما وُضِعَ ليدل على شيء بعينه."⁽³⁾

وقد ورد التعريف في مواضع عديدة من السورة بفوائده المختلفة، نذكر منها:

1- قال تعالى: [تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] {الملك:1}

(1) انظر: التحرير والتنوير (40/29).

(2) انظر: الكشاف (588/4)، التحرير والتنوير (40/29).

(3) التعريفات، (ص:283).

وقد جاء لفظ (المُلْك) معرفة، والتعريف هنا للجنس، أي جنس المملوكات كلها، قال الطاهر: "والتعريف في (المُلْك) على هذا الوجه تعريف الجنس الذي يشمل جميع أفراد الجنس، وهو الاستغراق، فما يوجد من أفرادهِ فرد إلا وهو مما في قدرة الله، فهو يعطيه وهو يمنعه." (1)

2- قال تعالى: [وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ] {الملك: 25-26}.

وقد جاء لفظ (العلم) معرفة، والتعريف فيها للعهد، فيكون المعنى: العلم بهذا الوعد الذي تسألون عنه.

ثانياً: التنكير

قال الجرجاني: "النكرة ما وُضِعَ لشيءٍ لا بعينه كرجل وفسر." (2)

وقال أحمد البدوي: "والنكرة تفيد معناها مطلقاً من كل قيد، أما ما يذكره علماء البلاغة من معان استفيدت من النكرة، فإنها لم تفدها بطبيعتها، وإنما استفادتها من المقام الذي وردت فيه، فكأنما المقام هو الذي يصف النكرة، ويحدد معناها، فكلمة حياة مثلاً تدل على معناها المجرد، والمقام يهبها معنى التحقير حيناً، والتعظيم حيناً آخر، والنوعية من موضع ثالث" (3)

والجدول الآتي يبين بعض المواضع التي ورد فيها التنكير وأغراضه البلاغية:

مسلسل	الآية	رقمها	الكلمة	الغرض البلاغي
1	وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ	1	قَدِيرٌ	التعظيم
2	مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ	3	تَفَاوُتٍ	العموم
3	وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ	5	بمصابيح	التعظيم
4	كَلِمًا أَلْفِي فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا	8	فَوْجٌ	التحقير
5	فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ	9	شيءٍ	العموم
6	لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ	12	مغفرةً	التعظيم
7	أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا	17	حاصباً	التهويل
8	أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ	19	صافاتٍ	التنويح والتنكير
9	إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ	19	بصيرٌ	التعظيم

(1) التحرير والتنوير (10/29).

(2) التعريفات، للجرجاني، (ص: 316).

(3) من بلاغة القرآن، أحمد البدوي، (ص: 102).

التحقير	جندٌ	20	أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ	10
العموم	غرورٍ	20	إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ	11
التنويح	عتوّ ونفورٍ	21	بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ	13،12
التهويل والتفطيع	عذابٍ	28	فَمَنْ يُجِزِ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ	14

1- قال تعالى: [وَأَلْقَدْنَا زِينَةَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ] {الملك:5}

جاءت كلمة (مصابيح) نكرة، فلم يقل تعالى (بالمصابيح) وذلك لتفيد تعظيم تلك المصابيح، فهي ليست مصابيح كالمعهودة لديكم في الدنيا؛ وإنما هي مصابيح عظيمة لا توازيها مصابيحكم إضاءةً ومنفعةً.⁽¹⁾

قال الطبري: قال قتادة: إن الله -جلّ ثناؤه- إنما خلق هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها زينةً للسماء الدنيا، ورجومًا للشياطين، وعلامات يُهتدي بها؛ فمن يتأول منها غير ذلك، فقد قال برأيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكأف ما لا علم له به.⁽²⁾

وقال الألوسي: "وتتكبرها للتعظيم، أي بمصابيح عظيمة ليست كمصابيحكم التي تعرفونها".⁽³⁾

2- قال تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ] {الملك:12}

تخبر الآية عن ما أعده الله تعالى للذين يخشونه بالغيبي، بأن لهم مغفرة، وقد جاءت (مغفرة) نكرة؛ وذلك لكي تفيد التعظيم، فهي مغفرة عظيمة، وعظم الثواب يكون من عظم المتكلم، فتأمل كم هي مغفرة عظيمة.

3- قال تعالى: [فَمَنْ يُجِزِ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ] {الملك:28}

قال سبحانه وتعالى (عذاب أليم) بالالتكثير ولم يقل (العذاب الأليم) وذلك لأن التثنية يفيد هنا التهويل والتفطيع⁽⁴⁾، فتذهب النفس في تقديره كل مذهب.

(1) انظر: الكشاف (582/4).

(2) جامع البيان (508/23).

(3) روح المعاني (123/21).

(4) انظر: التحرير والتنوير (53/29).

المطلب الرابع: التوكيد

تتبع أهمية التأكيد من حيث كونه من أهم مباحث علم المعاني، ذاك العلم الجليل الشأن، العظيم النفع، وفي ذلك يقول العلوي: " اعلم أن التأكيد تمكين الشيء في نفسه، وتقوية أمره، وفائدته إزالة الشكوك، وإماطة الشبهات عما أنت بصدده، وهو دقيق المأخذ، كثير الفوائد "(1)

"وهذا التوكيد يختلف قلة وكثرة على وفق أحوال الإنكار، لأن وظيفة الخبر حينئذ هي تثبيت هذا المعنى في تلك النفس الراضية له، فلا مفر من أن تكون قوة العبارة، ووثاقتها ملائمة لحال النفس قادرة على الإقناع"(2).

فالأسلوب في كل الأحوال يجب أن يُراعى حال المخاطب، فإذا كان المخاطب خالي الذهن فيساق الكلام من غير توكيد، ويؤكد للمتردد الشاك، ويضعف التوكيد للمنكر، ويسمى الأول الابتدائي، والثاني الطلبي، والثالث الإنكاري.

"ومناسبة التسمية واضحة؛ لأنك في الأول تبتدئ به المعنى في النفس، والثاني تُواجه به تردداً، وكأنَّ النفس طالبة للخبر، والثالث تُواجه إنكاراً"(3)

وقد ورد التأكيد في سورة الملك بأساليب مختلفة، هي على النحو التالي:

أولاً: التأكيد بحرف (إنَّ)

(إنَّ) حرفٌ في العربية اشتهر في صلاحيته للتأكيد في مواطن يعجز عنها غيره، ولا يحسن فيها سواه، لما له من قدرة على ربط الكلام ببعضه ببعض كما أشار الجرجاني(4)، كما تتجاوز وظيفته ربط الكلام إلى إفادة التعليل في أغلب مواضعها، يقول الزركشي: "واعلم أنَّ كلَّ جملةٍ صُدِّرت بـ(إنَّ) مفيدةٌ للتعليل، وجوابُ سؤالٍ مقدرٍ"(5).

قال السيوطي: "(إنَّ) بالكسر والتشديد على أوجهٍ: أحدهما التأكيد والتحقق، وهو الغالب ... والثاني للتعليل"(6)

ويقول الطاهر عن فائدة هذا الحرف: " تعني غناء فاء الترتيب والتسبب وتفيد التعليل، وربط الكلام بما قبله كما تفيد الفاء"(1).

(1) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (176/2).

(2) خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، لمحمد أبو موسى (ص:48).

(3) خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، لمحمد أبو موسى (ص:51).

(4) دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني (ص:207).

(5) البرهان في علوم القرآن (406/2).

(6) الإتيان في علوم القرآن (454/1).

ومن المعروف أن (إنّ) تدخل على الجملة الاسمية، والجملة الاسمية تفيد الدوام والثبوت⁽²⁾، فتؤكد (إنّ) على ثبوت ما في الجملة على الدوام بلا انقطاع. والجدول الآتي يبين المواضع الثلاثة التي جاء التأكيد فيها بحرف إن:

رقم الآية	الآية	مسلسل
12	إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ	1
13	إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ	2
19	إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ	3

قال تعالى: [وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ] {الملك:13}

كان المشركون يعتقدون أنهم إذا أسروا القول فالله لا يعلمه، فبينت الآية أن إسرار القول والجهر به على حدّ سواء، فالله يعلمه، وجاءت فاصلة الآية (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) مؤكّدة بـ (إنّ) وغرضها التعليل، والمراد بـ (ذات الصدور) ما يتردد في النفس من الخواطر والنوايا.⁽³⁾ إذن فالفاصلة مؤكّدة ومعلّلة للتسوية بين الحالتين: الإسرار والجهر، أي لأنّ الله متصفّ بالعلم وأنّ علمه محيط بما هو أخفى من الإسرار، وهو ما يدور في الصدور، ومَن كان كذلك فهو بالتأكيد عَلِيمٌ بما يُسرّه الناس أو يجهرونه.⁽⁴⁾

ثانياً: التأكيد بقصر المسند على المسند إليه، والجدول الآتي يوضح المواضع التسعة التي جاء فيها التأكيد بقصر المسند على المسند إليه:

رقم الآية	الآية	مسلسل
1	وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ	1
2	وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ	2
4	وَهُوَ حَسِيبٌ	3
7	وَهِيَ تَقُورُ	4
14	وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ	5

(1) التحرير والتنوير (419/16).

(2) دلائل الإعجاز، للرجاني، ص118، الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني، ص83، الكليات، لأبي البقاء، (ص:341).

(3) انظر: تفسير روح البيان (67/10).

(4) انظر: التحرير والتنوير (30/29).

15	هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا	6
23	قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ	7
24	قُلْ هُوَ الَّذِي دَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ	8
29	قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا	9

قال تعالى: [أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ] {الملك:14}

قال أبو السعود: "وقوله -تعالى- (وهو اللطيف الخبير) حال من فاعل (يعلم) مؤكدة للإنكار والنفي، أي ألا يعلم ذلك والحال أنه المتوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه، وما بطن."⁽¹⁾
ثالثاً: التأكيد بحرف (قد) ولام القسم أو بحرف قد فقط، والجدول التالي يبين مواضعه:

رقم الآية	الآية	مسلسل
5	وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ	1
9	قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا	2
18	وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ	3

قال تعالى: [وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ] {الملك:18}

قال ابن عاشور: "وقد أكد الخبر باللام و (قد) لتنزيل المعرّض بهم منزلة من يظن أن الله عاقب الذين من قبلهم لغير جرم أو لجرم غير التكذيب. فهو مفرع على المؤكد، فالمعنى: لقد كذب الذين من قبلهم ولقد كان نكيري عليهم بتلك الكيفية."⁽²⁾

رابعاً: التأكيد بحرف الجر (من)، والجدول التالي يبين مواضعه:

رقم الآية	الآية	مسلسل
3	مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ	1
3	هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ	2
9	وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ	3

قال تعالى: [... مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ] {الملك:3}

قال أبو السعود: "ومن لتأكيد النفي، أي ما ترى فيه شيئاً من تفاوتٍ، أي اختلاف وعدم تناسب."⁽³⁾
خامساً: التأكيد بأداة الحصر والقصر (إلا، إنما)، والجدول التالي يبين ذلك:

(1) إرشاد العقل السليم (278/6).

(2) التحرير والتنوير (37/29).

(3) إرشاد العقل السليم (275/6).

رقم الآية	الآية	مسلسل
9	إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ	1
19	مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ	2
20	إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ	3
26	قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ	4
26	وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ	5

قال تعالى: [أَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ] {الملك:20}

قال أبو السعود: "وقوله -تعالى- (إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ) اعتراضٌ مقررٌ لما قبله، ناع عليهم ما هم فيه من غاية الضلال، أي ما هم في زعمهم أنهم محفوظون من النوائب بحفظ آلهتهم لا بحفظه -تعالى- فقط، أو أن آلهتهم تحفظهم من بأس الله، إلا في غرورٍ عظيمٍ وضلالٍ فاحشٍ من جهة الشيطان، ليس لهم في ذلك شيء يعتد به في الجملة." (1)

سادساً: التأكيد بحرف التنفيس

قال تعالى: [أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ] {الملك:17}، قال ابن عاشور: "وَحَرَفُ التَّنْفِيسِ حَفَّةُ الدُّخُولِ عَلَى الْأَخْبَارِ الَّتِي سَتَعُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَإِسْأَلُ الْحَاصِبِ غَيْرَ مُخْبِرٍ بِحُصُولِهِ وَإِلَّا لَمَا تَخَلَّفَ لِأَنَّ حَبَرَ اللَّهِ لَا يَتَخَلَّفُ. وَإِنَّمَا هُوَ تَهْدِيدٌ وَتَحْذِيرٌ فَإِنَّهُمْ رُبَّمَا آمَنُوا وَأَقْلَعُوا فَسَلِمُوا مِنْ إِسْأَلِ الْحَاصِبِ عَلَيْهِمْ وَلَكِنْ لَمَّا أُرِيدَ تَحْقِيقُ هَذَا التَّهْدِيدِ شَبَّهَ بِالْأَمْرِ الَّذِي وَقَعَ فَكَانَ تَفْرِيعٌ صِغَةً الْإِخْبَارِ عَلَى هَذَا مُؤْذِنًا بِتَشْبِيهِ الْمُهَدَّدِ بِهِ بِالْأَمْرِ الْوَاقِعِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّمَثِيلِ الْمَكْنِيَّةِ." (2)

سابعاً: التأكيد بضمير الفصل (هو)

[أَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ] {الملك:20} .

ثامناً: التأكيد بمؤكدين (السين ، وضمير الفصل "هو")

قال تعالى: [قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ] {الملك:29}

(1) إرشاد العقل السليم (280/6).

(2) التحرير والتنوير (35 /29).

المطلب الخامس: الالتفات

الالتفات أحد فنون البلاغة العربية، حيث جرى اللسان العربي قديماً وحديثاً على سننه، قال العلوي: "علم أن الالتفات من أجل علوم البلاغة وهو أمير جنودها، والواسطة في قلائدها وعقودها"⁽¹⁾. والالتفات لغةً بمعنى التحول والانصراف⁽²⁾، سمي بذلك للانتقال في الكلام بين أوجه الخطاب المختلفة: الخطاب، والغيبة، والتكلم، وقد يكون الالتفات بالتحول عن صيغة المضارع إلى استعمال الفعل الماضي، أو العكس.

والالتفات اصطلاحاً: "العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول"⁽³⁾ وفائدة توظيف الالتفات في الكلام هي نظرية نشاط السامع، وإيقاظُ إصغائه إلى الكلام، قال الزمخشري: "ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن نظرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد"⁽⁴⁾.

إن صور الالتفات كثيرة ومتنوعة في القرآن الكريم، وقد جاء في سورة الملوك بحسب رواية حفص عن عاصم بصورة الالتفات من الغيبة إلى التكلّم، ومن الخطاب إلى الغيبة، ثم الرجوع إلى الخطاب، وجاء الالتفات بحسب القراءات الأخرى بصورة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة.

والمواضع التي ورد فيها الالتفات هي كما يلي:

أولاً: الالتفات من الغيبة إلى التكلّم:

قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ * الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ * وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ} {الملك: 1-5}

افتتِحَ الكلام في الآيات السابقة بصيغة الغيبة (تبارك الذي) و(وهو على كل) و(الذي خلق الموت) و(وهو العزيز) و(الذي خلق سبع) ثم انتقل الكلام إلى صيغة التكلّم (ولقد زيننا) و(وجعلناها) و(وأعدنا)، وهذا الالتفات يدل على التعظيم، إذ إنه بـ(نا) العظمة التي تختص بالمتكلم، "... وكان الالتفات هنا ذا مغزى مهم لأن السماء الدنيا وما فيها من كواكب من أظهر وأوضح الآيات التي

(1) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليجيى بن حمزة العلوي (131/2).

(2) انظر: لسان العرب، (214/13).

(3) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (131/2).

(4) الكشف عن حقائق التنزيل (8/1).

تشير إلى القدرة الخالقة والتي يحث القرآن على النظر إليها كثيراً، الالتفات إذن كأنه لفت إلى الموضوع الذي تؤخذ منه العبرة، وتدنو به الحقيقة الدالة من القلوب المعترية⁽¹⁾. إن تعظيم الفاعل حين إسناد الفعل إليه، يشير إلى عظمة الفعل وخطره وأهميته. تلك الأهمية التي يراد تثبيتها في أذهان المتلقين، وقد يكون من مستتبعات العظمة اختصاص الفاعل بالفعل، على نحو لا يستطيعه غيره. ومن ثم دعوة إلى إعمال الذهن في ذلك الفعل نفسه، والتوقف عنده طويلاً لمعرفة مغزى أن ينسب إلى ضمير التكلم. ويؤنسنا في هذا أن هذا النوع من الالتفات اختص بأفعال لها خطرها، والتأمل فيها له ما له من وقع في تقرير المعنى المراد.

ثانياً: الالتفات المتبادل ما بين الخطاب والغيبة:

قال تعالى: [وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ * هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ * أَمُنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمُنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ * وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيفَ كَانَ نَكِيرٍ * أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ] {الملك: 13-19}

تخاطب الآيات الكفار بصيغة الخطاب فتذكرهم بعلم الله المطلق بكل شيء (وأسروا قولكم أو اجهروا به)، وتمتن عليهم بتذليل الأرض لهم (جعل لكم الأرض ذلولا، فامشوا في مناكبها، وكلا من رزقه) ثم انتقلت إلى تهديدهم (أمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض) ثم التحويل في التهديد (أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا، فستعلمون كيف نذير) وبعد ذلك التفت تعالى من الخطاب إلى الغيبة فقال: (ولقد كذب الذين من قبلهم) وقال (أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات)، والغرض من ذلك "التعريض بالغضب عليهم بما أتوه من كل تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم، فكانوا جديرين بإبعادهم عن الحضور للخطاب، فإذ ذلك لم يقل (ولقد كذب الذين من قبلكم) ولم يقطع توجيه التذكير إليهم والوعيد لعلهم يتدبرون في أن الله لم يدخرهم نصحا⁽²⁾.

قال أبو السعود: "والالتفات إلى الغيبة لإبراز الإعراض عنهم."⁽³⁾

ثم يرجع الكلام من الغيبة في الآيات الماضية إلى الخطاب، لينتقل إلى الغيبة في ذات الآية نفسها في نهايتها.

قال تعالى: [أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ] {الملك: 20}

(1) خصائص التراكيب (ص: 200).

(2) التحرير والتنوير (36/29).

(3) إرشاد العقل السليم (6/279، 280).

انتقل الكلام من الغيبة (أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات) إلى خطاب الكافرين (أمن هذا الذي هو جند لكم) وفي هذا الانتقال تهديد ووعيد، فالآية تُبَيِّن عجز شفعاتهم عن أن يدفعوا عنهم شيئاً من الضرّ، ثم التفت الخطاب من ضمير المخاطبة (لكم ، ينصركم) إلى ضمير الغيبة (إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ) وفي ذلك تهكم بهم وتحقير لشأنهم من أن يوجّه إليهم الخطاب. قال أبو السعود: "والانتفات إلى الغيبة للإيدان باقتضاء حالهم للإعراض عنهم وبيان قبائحهم لغيرهم"⁽¹⁾

ثم يعود توجيه الخطاب للكافرين في الآية التالية مباشرة، لينتقل إلى الغيبة في ذات الآية في نهايتها، قال تعالى: [أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ] {الملك:21} فهذا التلون والتقل بين المواجهة والإقبال على المخاطبين، وبين الإعراض عنهم بصيغة الغيبة، فيه من الذمّ والوعيد والتوبيخ والتقريع والإنكار والدلالة على شدة الغضب.

ثالثاً: الانتفات من الخطاب إلى الغيبة

قال تعالى: [قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ] {الملك:28-29} تخاطب الآية الكافرين مبينة حقيقة الأمر أن موت أو حياة إنسان لا تغني عن غيره شيئاً ممّا جرّه إليه عمله، إذ لا مجبر للكافر من عذاب الله إلا بالإيمان به والتوكل عليه، ثم تخاطبهم الآية بأنكم ستعلمون غداً أي الفريقين في ضلال مبين، وقرأ الكسائي (فسيعلمون)⁽²⁾ بياء الغيبة، وفي ذلك انتفات من الخطاب في (أرأيتم) إلى الغيبة (فسيعلمون) وهذا يناسب خاتمة الآية التي قبلها (فمن يجبر الكافرين) حيث إنها بصيغة الغيبة.⁽³⁾

والمعنى: على قراءة (فسيعلمون) بقاء الخطاب، تكون الجملة من بقية الكلام الذي أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله، وعلى قراءة (فسيعلمون) بياء الغيبة، تكون الجملة إخباراً من الله بأنه سيعاقبهم عقاب الضالّين.

(1) إرشاد العقل السليم (280/6).

(2) البدر الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، للنشار (177/4).

(3) انظر: الدر المصون (395/10).

المطلب السادس: التعبير عن الكثرة بلفظ التثنية

قال تعالى: {ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ} {الملك:4}، هنا يأمر تعالى بتكرار النظر في السماء والتأمل فيها بحثاً عن شقوق أو خلل وتصدع، ففي النهاية سيرجع البصر صاعراً ذليلاً لم يجد ما يبحث عنه، وهو كليل منقطع لم يجد أو يدرك ما يطلبه وهو وجود الخلل في خلق السموات. (1)

قال الزمخشري: "كأنه يُطْرَدُ عن ذلك طرداً بالصَّغار والقماء، وبالإعياء والكلال لطول الإجالة والترديد." (2)

لكن تكرار النظر مرتين اثنتين لا يكون سبباً لهذه الحالة -خاسئاً محسوراً- التي عاد بها، فيكون المراد من التثنية هنا التكرار والكثرة لا الحصر في مرتين، إذ إن كثرة المعادة هي التي تؤدي إلى أن يحسر بصره فلا يعثر على أدنى اختلاف في خلق الله. (3)

قال السمين: "وهو مثلى لا يُراد به حقيقته، بل التكرير، بدليل قوله: {يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ} أي: مُزْدَجراً وهو كليل، وهذان الوصفان لا يأتيان بنظرتين ولا ثلاث، وإنما المعنى كرات، وهذا كقولهم: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَحَنَائِكَ وَدَوَالِيكَ وَهَذَاذِيكَ لا يُريدون بهذه التثنية شفع الواحد، إنما يريدون التكرير أي: إجابة لك بعد أخرى، وإلا تناقض الغرض، والتثنية تفيد التكرير لقرينة كما يفيد أصلها، وهو العطف" (4).

المطلب السابع: التعبير عن الجمع بلفظ المفرد

قال تعالى: {تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ} {الملك:8} . تتحدث هذه الآية عن حال جهنم التي تكاد أن تنقطع من شدة الغيظ، وكلما أُلقي فيها جماعة من الكفار سألهم زانية جهنم سؤال توبيخ ألم يأتكم رسول في الدنيا يدعوكم إلى الإيمان وينذركم هذا اليوم؟ (5)

وجاء في سؤال الخزانة لفظ (نذير) بالإفراد، مع أن المراد (نذُر)، إذ إن الخطاب موجّه إلى الفوج الملقى في النار، وهم جماعة.

(1) انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن (125/7).

(2) الكشف عن حقائق التنزيل (581/4).

(3) انظر: الكشف عن حقائق التنزيل (581/4)، البحر المحيط (293/8).

(4) الدر المصون (379/10).

(5) انظر: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر الجزائري (397/5).

قال أبو السعود: "أي قال كلُّ فوجٍ من تلك الأفواج قد جاءنا نذيرٌ، أي واحدة حقيقة أو حكماً كأنبيا بني إسرائيل، فإنَّهم في حكم نذير واحد"⁽¹⁾.

المطلب الثامن: خطاب المفرد بلفظ الجمع

قال تعالى: [تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ] {الملك:8}.
ذَكَرْتُ هذه الآية أن الذي يُلقى هو فَوْجٌ، ولفظ الفوج مفرد، لكن جاءت الضمائر العائدة إلى الفوج ضمائر جمع، وذلك في قوله (سألهم) وقوله (يأتكم)، وذلك لتأويل الفوج بجماعة.
قال تعالى: [قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ] {الملك:9}.

تبين هذه الآية جواب كل فوج من الأفواج التي تُلقى في نار جهنم لخزنتها، حيث يجيبون: بلى، فيعترفون أنه قد جاءهم الرسول إلا أنهم كذبوا وأنكروا أن يكون الله قد نزل شيئاً من السماء، وتوجيه ذلك أنه جمع جواب الأفواج في عبارة واحدة، أي قال جميع الأفواج: بلى قد جاءنا نذير، فكذبنا، وقلنا لرسولنا إن أنتم إلا في خطأ تصوري كبير⁽²⁾.

وقد جاء في جواب الفوج لفظ (أنتم) وذلك في مقولتهم للنذير (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ)، مع أن المخاطب واحد وهو نذيرهم، إذ إن لكل قوم رسولاً واحداً في الغالب، حيث يستثنى موسى وهارون - عليهما الصلاة والسلام - ورسل أصحاب القرية الوارد ذكرهم في سورة يس، وفي ذلك فائدة وهي بيان أن تكذيب أحد المرسلين بمثابة تكذيب الكل، فخطاب الواحد بلفظ الجمع فيه مبالغة في تكذيب الفوج.

قال أبو السعود: "وجمع ضمير الخطاب مع أنَّ مخاطبَ كلِّ فوجٍ نذيره، لتغليبه على أمثاله مبالغةً في التكذيب، وتمادياً في التضليل"⁽³⁾.

المطلب التاسع: عطف الفعل على الاسم

قال تعالى: [أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ] {الملك:19}.

(1) إرشاد العقل السليم (276/6).

(2) انظر: التحرير والتنوير (26/29).

(3) إرشاد العقل السليم (276/6).

تقرر هذه الآية مظهراً من مظاهر قدرته تعالى، وهو تحليق الطير في الهواء دون سقوط إلى الأرض، وقد عطف تعالى الفعل (يقبضن) على الاسم (صافات) والمراد: صافات وقابضات، وسبب ذكر الفعل دون الاسم يبينه الزمخشري حيث يقول: "لأنَّ الأصل في الطيران هو صفّ الأجنحة؛ لأنَّ الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مدّ الأطراف وبسطها، وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك، فجاء بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل، على معنى أنَّهن صافات، ويكون منهنَّ القبض تارة كما يكون من السابح".⁽¹⁾

قال السمين: قوله: "{ وَيَقْبِضُنَّ } عَطَفَ الفِعْلَ على الاسمِ لأنَّه بمعناه أي: وقابضاتٍ، فالفعل هنا مؤوَّلٌ بالاسم".⁽²⁾

وقال أبو حيان: "ومثل هذا العطف فصيح . . . وملخصه أنَّ الغالب هو البسط، فكأنَّه هو الثابت، فعبر عنه بالاسم، والقبض متجدد، فعبر عنه بالفعل"⁽³⁾.

المبحث الثاني

الأساليب الإنشائية وأغراضها البلاغية في سورة الملوك

ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: الاستفهام

يُعدُّ الاستفهام نوعاً من أنواع الإنشاء الطلبي، والأصل فيه طلب الإفهام والإعلام لتحصيل فائدة عملية مجهولة لدى المستفهم؛ لكن قد يُراد بالاستفهام غير هذا المعنى الأصلي له، حيث يأتي الاستفهام ويُراد منه أغراضٌ بلاغيةٌ هي: الاستبطاء، والتعجب، والتنبيه، والوعيد، والأمر، والتقرير، والإنكار؛ إما توبيخاً أو تكذيباً، والتهمك، والتحقير، والتهويل، والاستبعاد، والتوبيخ والتعجب معاً.⁽⁴⁾

وللإستفهام العديد من الأدوات، يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

1- ما يُستفهم به عن التَّصور والتَّصديق، وأداته الهمزة فقط.

2- ما يُستفهم به عن التَّصديق فقط، وأداته حرف (هل).

3- ما يُستفهم به عن التَّصور فقط، ويشمل باقي أدوات الاستفهام: ما، مَنْ، أيُّ، كم، كيف، أين، أُنَّى، متى، أيَّان.

(1) الكشاف عن حقائق التنزيل (581/4).

(2) الدر المصون (390/10).

(3) البحر المحيط (297/8).

(4) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة (ص: 136-141).

وقد تتبعت آيات سورة الملك، فوجدت ورود ست أدوات فقط من أدوات الاستفهام: الهمزة، وهل، ومتى، ومن، وأي، وكيف. وهذه الأدوات وردت في أربعة عشر موضعاً من السورة في ثلاث عشرة آية.

والجدول التالي يبين المواضع التي ورد فيها الاستفهام والغرض البلاغي لكل منها:

مسلسل	الآية	رقم الآية	الغرض
1	لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا	2	التهديد
2	هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ	3	التقرير
3	سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ	8	التوبيخ والتفريع
4	أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ	14	الإنكار
5	أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ	16	الإنكار
6	أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا	17	الإنكار
7	فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ	18	التهويل والفظاعة
8	أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ	19	الإنكار
9	أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرِكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ	20	التبكيك والتوبيخ والتحقير
10	أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَزُفُّكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ	21	التوبيخ والتعجيز
11	أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ	22	التقرير
12	وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ	25	التهمك والاستهزاء
13	فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ	28	الإنكار
14	فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ	30	الإنكار

1- قال تعالى: [الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ] {الملك:3} .

بينت الآية قدرة الله -تعالى- المتمثلة في خلق سبع سموات فوق بعضها البعض متماثلة متطابقة تمام التطابق، وأنتك لو دقت النظر وعاودته مرة بعد مرة لعرفت دقة هذا الخلق وعظمة الخالق، وجاء الاستفهام خارجاً عن أصله وهو طلب الإقحام، ليفيد غرضاً بلاغياً وهو النفي، فالجملة الاستفهامية هنا تفيد التقرير، "أي لا يسعك إلا أن تعترف بانتقاء الفطور في نظام السموات فتراها

ملتزمة محبوكة لا ترى في خلالها انشاقاً⁽¹⁾، ومؤكدة عدم وجود أدنى خلل في خَلْق السموات، كما أنَّ الاستفهام عن الشيء يفيد شدة الاهتمام في البحث عنه، فالمراد أنك مهما بذلت من جهد واهتمام في البحث عن خَلَلٍ في خَلْق السموات فإنَّك لن تجد.⁽²⁾

قال الطاهر: "والاستفهام في (هل ترى من فطور) تقيري، ووقع بـ (هل) لأن (هل) تفيد تأكيد الاستفهام، إذ هي بمعنى (قد) في الاستفهام، وفي ذلك تأكيد وحث على التبصر والتأمل، أي لا تقتنع بنظرة ونظرتين، فنقول: لم أجد فُطوراً، بل كَرَّرَ النظر وعاوده باحثاً عن مصادفة فطور لعلك تجده"⁽³⁾.

2- قال تعالى: [تَكَادُ نَمِيْرٌ مِّنَ الْغَيْظِ كَلْمًا أَلْفِي فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ] {الملك:8}

تصف الآية النار أنها تكاد أن تنقطع من شدة الغيظ، وأنه كلما ألقى فيها جماعة من الكفار سألهم زبانية جهنم سؤال توبيخ وتقرير ألم يأتيكم رسول في الدنيا يدعوكم إلى الإيمان وينذركم هذا اليوم؟ وفي هذا التوبيخ من التنديد ليزدادوا حسرة.⁽⁴⁾

قال أبو السعود: "أي كلما ألقى فيها جماعة من الكفرة، (سألهم خزنتها) بطريق التوبيخ والتقرير ليزدادوا عذاباً فوق عذاب، وحسرة على حسرة، (ألم يأتيكم نذير) يتلو عليكم آيات ربكم وينذركم لقاء يومكم هذا؟"⁽⁵⁾.

3- قال تعالى: [أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ] {الملك:14}

افتتحت الآية بالاستفهام بالهمزة، وهذا الاستفهام يفيد غرضاً بلاغياً وهو الإنكار، فالآية تتكرر على الكفار اعتقادهم أن الله لا يعلم الخفيات والسرائر، إذ كيف ينتفي علمه بهما وهو خالق كل شيء وهما من جملة هذا الخلق.⁽⁶⁾

قال الزمخشري: «ثم أنكر ألا يحيط علماً بالمضمّر والمُسّرّ والمُجهرِ مَنْ خلق الأشياء، وحالُه أنه اللطيفُ الخبيرُ المتوصلُ علْمُه إلى ما ظهر وما بطن»⁽⁷⁾.

(1) التحرير والتنوير (19/29).

(2) انظر: نظم الدرر (68/8).

(3) التحرير والتنوير (19/29).

(4) انظر: البحر المحيط (294/8)، التحرير والتنوير (25/29).

(5) إرشاد العقل السليم (276/6).

(6) انظر: إرشاد العقل السليم (278/6).

(7) الكشاف عن حقائق التنزيل (584/4).

قال أبو حيان: "وهو استفهام معناه الإنكار ، أي كيف لا يعلم ما تكلم به من خلق الأشياء وأوجدها من عدم الصرف، وحاله أنه اللطيف الخبير المتوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن؟"⁽¹⁾.

4- قال تعالى: [أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ] {الملك:16} تخاطب الآية الكافرين، حيث افتتحت بالاستفهام الذي غرضه الإنكار والتوبيخ والتعجيب، أي هل أمنتم أيها الكافرون أن يخسفَ اللهُ بكم الأرض، فتضطرب بكم وترتج، وتذهب وتجيء.⁽²⁾ فالآية من خلال الاستفهام جاءت إنكاراً وتحذيراً وتوبيخاً للكفار على سوء اعتقادهم، وكأنهم آمنون من أن يأمر الله تعالى ملائكته بخسف الأرض بهم.

5- قال تعالى: [أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ] {الملك:19} .

هنا الاستفهام غرضه الإنكار، حيث ينكر تعالى عليهم عدم الانتفاع من رؤية الطير على هذه الحالة العجيبة، فلم يهتدوا بها إلى ألوهيته تعالى، فهو الذي حفظها من السقوط بما جعل فيها من الخصائص التي تمكنها من الطيران دون سقوط، لذلك أنزلهم الله منزلة من لم يرَ هذه الأحوال فقال (أولم يروا).⁽³⁾

6- قال تعالى: [أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ* أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ] {الملك:20،21} .
تُذكر الآية على المشركين أن يكون هناك أحد يدفع عنهم العذاب⁽⁴⁾، مستعملة أسلوب الاستفهام الذي غرضه التعجيز والتبكيث، بحيث لا يستطيعون الإجابة أن هذا -أحد أصنامنا- يدفع عنا العذاب، فدل ذلك على أن الجند الوارد ذكره في الآية لا وجود له في الواقع، كما أن الاستفهام يُراد منه التحقير، أي تحقير شأن أصنامهم التي يزعمون أنها تدفع عنهم البلاء والعذاب، فما الكافرون إلا في غرور أوقعهم فيه الشيطان، حيث زَيَّن لهم الشرك ووعدهم أنه لا عقاب بعد الموت، وأن ألتهتم تشفع لهم عند الله.⁽⁵⁾

(1) البحر المحيط (295/8).

(2) انظر: اللباب في علوم الكتاب (248،249/19)، التحرير والتنوير (33/29).

(3) انظر: التحرير والتنوير (39/29).

(4) انظر: الجامع لأحكام القرآن (218/18).

(5) انظر: البحر المحيط (297/8)، أيسر التفاسير (402/5).

قال أبو السعود: وقوله تعالى: (أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جَنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرِكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ) تَبَكَّيْتُ لَهُمْ بِنَفِي أَنْ يَكُونَ لَهُمْ نَاصِرٌ غَيْرَ اللَّهِ -تعالى- أو نَاصِرٌ مِنْ عَذَابِهِ -تعالى- لتَبَكَّيْتُهُمْ بِإِظْهَارِ عَجْزِهِمْ عَنْ تَعْيِينِهِ، وَ(أَمْ) مَنْقُطَعَةٌ مُقَدَّرَةٌ بِ(بَل) الْمَفِيدَةَ لِلانْتِقَالِ مِنْ تَوْبِيخِهِمْ عَلَى تَرْكِ التَّأَمُّلِ فِيمَا يَشَاهِدُونَهُ مِنْ أَحْوَالِ الطَّيْرِ الْمُنْبِئَةِ عَنْ تَعَاجِيبِ أَثَارِ قُدْرَةِ اللَّهِ -عز وجل- إِلَى التَّبَكُّيْتِ بِمَا ذَكَرَ . . . فَاَلْمَعْنَى بَلْ مِنْ هَذَا الْحَقِيرِ الَّذِي هُوَ فِي زَعْمِكُمْ جَنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرِكُمْ نَصْرًا كَائِنًا مِنْ دُونِ نَصْرِهِ تَعَالَى أَوْ يَنْصَرِكُمْ مِنْ عَذَابِ كَائِنٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ⁽¹⁾.

وتبين الآية الثانية أنَّ الرزق كله بيد الله، فلو أمسك رزقه ولم يرزقكم فمن ذا الذي يرزقكم، فحينها كل مخلوق لا يستطيع أن يرزق نفسه فكيف سيرزق غيره، لذا فالرزاق المنعم هو الذي يستحق أن يُفرد بالعبادة.

7- قال تعالى: [أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] {الملك:22}

افتتحت هذه الآية بالاستفهام، وهذا الاستفهام لا تزداد حقيقته وهي طلب الإفهام، فالغرض البلاغي منه التقرير، أي تقرير أنَّ الماشي سويًّا على صراط مستقيم أهدى⁽²⁾.

8- قال تعالى: [وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] {الملك:25}

من المعلوم أن المشركين قد جحدوا البعث وأنكروه، وقد حكى القرآن ما كان يقوله بعضهم لبعض تهكمًا واستهزاءً: [وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُوكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يَنْبَغُكُمْ إِذَا مَرُّكُمْ كُلٌّ مِمَّزِقٍ إِنْكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ] {سبأ: 7، 8}

فيكون تعالى بقوله على لسانهم (متى هذا الوعد) قد سجل عليهم ذلك الاستهزاء⁽³⁾.

قال الطاهر: "والاستفهام بقولهم: (متى هذا الوعد) مستعمل في التهكم؛ لأنَّ من عادتهم أن يستهزئوا بذلك"⁽⁴⁾.

إذن فقولهم متى هذا الوعد مستعملين أسلوب الاستفهام يهدف إلى التهكم والاستهزاء.

9- قال تعالى: [قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ] {الملك:28} .

(1) إرشاد العقل السليم (6/279، 280).

(2) انظر: البحر المحيط (8/298)، التحرير والتنوير (46/29).

(3) انظر: الجامع لأحكام القرآن (18/220).

(4) التحرير والتنوير (49/29).

تبين الآية ما تمناه المشركون وهو هلاك النبي ﷺ وهلاك من معه من المؤمنين، وهي من خلال الاستفهام في (أرأيتم) تُنكر عليهم تمنيتهم لأمر لا يجنون من ورائها نفعاً، وأن تمنيتهم هذا من باب الحقد والحسد، وجاءت خاتمة الآية مبينة من خلال الاستفهام الذي غرضه الإنكار والنفي أن موت أو حياة إنسان لا تغني عن غيره شيئاً مما جرّه إليه عمله، ومبينة أن أعمالهم جرّت إليهم غضب الله تعالى فحلّ بهم العذاب سواء كان الرسول حياً أم ميتاً، فالخاتمة بصيغة الاستفهام مقررّة لحقيقة أنه لا مُجبرٍ للكافر من عذاب الله بسبب كفره.

قال أبو السعود: "أي لا ينجيكم منه أحدٌ متنا أو بقينا"⁽¹⁾.

وفي الآية توبيخٌ لهم على استعجالهم موت النبي لكي يستريحوا من دعوته.

10- قال تعالى: [فَلَنْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ] {المالك:30}

والمعنى: أخبروني إن صار ماؤكم غائراً في الأرض بحيث لا يبقى له وجود فيها أصلاً، أو صار ذاهباً في الأرض إلى مكان بعيد بحيث لا تتاله الدلاء فمن يأتيكم بماء معين أي: ظاهر تراه العيون، وتتاله الدلاء.⁽²⁾

أشارت الآية إلى أن أهل مكة يترقبهم عذاب بالقحط والجفاف، إذ إن مكة قليلة المياه، فتذكرهم بقدرة الله -تعالى- وحقيقة ملكه، وجاءت الخاتمة (فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ) مقررّة من خلال الاستفهام الإنكاري أنه ليس بمقدور أحد أن يأتي بالماء من باطن الأرض إلى وجهها غير الله سبحانه وتعالى فهو المالك لكل شيء والمتصرف في كل شيء والقادر على كل شيء.

فالاستفهام هنا يخرج عن أصله ليفيد غرضاً بلاغياً وهو الإنكار والنفي، أي لا أحد يأتيكم بماء سهل المأخذ قريب من وجه الأرض إلا الله.⁽³⁾

(1) إرشاد العقل السليم (282/6).

(2) انظر: فتح القدير للشوكاني (5/316).

(3) انظر: مفاتيح الغيب (67/30)، روح المعاني (21/152).

المطلب الثاني: الأمر

وللأمر أغراضه البلاغية التي تتمثل في التعجيز، والدعاء والتعجيب، والتسوية، والإباحة، والتلقين، وفيما يلي توضيح ذلك.

أولاً: التعجيز

قال تعالى: [الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ] {الملك:3} .

تُبين الآية مظهراً من مظاهر قدرة الله ﷻ في الخلق، حيث خلق سبع سموات مرتفع بعضها فوق بعض في الفضاء السحيق، ولا وجود لأدنى اختلاف في هذا الخلق، ثم أمرت الآية بإرجاع البصر للتحقق من وجود اختلاف في خلق السموات، حيث يقول تعالى (فارجع البصر) وصيغة الأمر هذه لها غرض بلاغي، وهو التعجيز.

ثانياً: الدعاء

قال تعالى: [فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ] {الملك:11} .

تسجل الآية اعتراف الكفار بذنبيهم، بأنهم لم ينتفعوا من نعمة السمع والعقل، فاستحقوا البعد من رحمة الله والبعد في نار جهنم، والمصدر (سُحْقًا) بمعنى فعل الأمر (اسحقهم) أي: اسحقهم يا الله سحقاً، وهنا يكون المصدر نائباً عن مفعول مطلق، وهو ينوب عن فعله، فيفيد غرضاً بلاغياً وهو الدعاء عليهم بالبُعد.

وقد يكون التقدير: أسحقهم الله إسحاقاً، فيكون المراد من هذا الدعاء التعجيب من حالهم، كما يقال: قاتله الله، وويل له، في مقام التعجب.

ثالثاً: التسوية

قال تعالى: [وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ] {الملك:13}

كان يسود بين المشركين اعتقاد فاسد، وهو أنهم إذا أسروا القول فانه لا يعلمه، فبينت الآية أن إسرار القول والجهر به على حدّ سواء، فانه يعلمه، وهذه التسوية أفادها صيغة الأمر (أسروا) و(اجهروا)، حيث عطف الفعل على نقيضه بأداة (أو) يفيد التسوية، كقوله تعالى: [اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ] {الطور:16} .

رابعاً: الإباحة

قال تعالى: [هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ] {الملك:15}

تبين الآية امتنان الله ﷻ على عباده، بأن ذلّل لهم الأرض، يسعون في نواحيها وجوانبها، ويأكلون من رزق الله الذي أخرجهم لهم من الأرض، والغرض من صيغة الأمر في قوله (فامشوا) و (كلوا) الإباحة، وليس مجرد تنفيذ الأمر المطلوب.⁽¹⁾

خامسا: التلقين

اشتملت سورة الملك على ست آيات افتتحت بفعل الأمر (قل) الذي يفيد التلقين وهي:

1- قال تعالى: [قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ] {الملك:23}

2- قال تعالى: [قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ] {الملك:24}

3- قال تعالى: [قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ] {الملك:26}

4- قال تعالى: [قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ] {الملك:28}

5- قال تعالى: [قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ] {الملك:29}

6- قال تعالى: [قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ] {الملك:30}

وفي هذه المواضع الستة يلقن الله عز وجل رسوله الحجج التي ينبغي أن يحاجج بها المشركين من أجل بيان فساد معتقداتهم، والاستدلال على العقيدة الصحيحة.

المطلب الثالث: المدح والذم

أولاً: المدح

لم يرد المدح في سورة الملك بصيغة صريحة من الصيغ التي تدل عليه، ولكنه ورد بالمعنى في موضع واحد، وهو قوله تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ] {الملك:12}، فقد وعد المولى ﷻ بالمغفرة والأجر العظيم للذين يخشون ربهم بالغيب، وهذا يعني الثناء على هذا الفريق من الناس.

ثانياً: الذم

أما الذم فقد ورد في موضع واحد أيضاً في سورة الملك، وهو قوله تعالى: [وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ] {الملك:6}، فقد ذم المولى ﷻ المصير السيء - وهو عذاب جهنم - الذي ينتظر الذين كفروا بربهم.

(1) انظر: مفاتيح الغيب (61/30).

المطلب الرابع: التمني

لم يرد التمني في سورة الملك بصيغة صريحة من الصيغ التي تدل عليه، ولكنه ورد بالمعنى في موضع واحد، وهو قوله تعالى: [وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ] {الملك:10}، فقول الكفار يدل على أنهم تمنوا أن لو كانوا قد عملوا أسمعهم وعقولهم في الحياة الدنيا لنجوا من عذاب السعير، "وجمع بين السمع والعقل، لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل" (1) "

المبحث الثالث

الصور البيانية وأغراضها البلاغية في سورة الملوك

ويشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول: براعة الاستهلال

قال أهل البيان: "مِنَ الْبَلَاغَةِ حُسْنُ الْإِبْتِدَاءِ وَهُوَ أَنْ يَتَأَنَّقَ فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَا يَقْرَعُ السَّمْعُ فَإِنْ كَانَ مُحَرَّرًا أَقْبَلَ السَّمْعُ عَلَى الْكَلَامِ وَوَعَاهُ وَإِلَّا أَعْرَضَ عَنْهُ وَلَوْ كَانَ الْبَاقِي فِي نِهَابَةِ الْحُسْنِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُؤْتَى فِيهِ بِأَعْدَبِ اللَّفْظِ وَأَجْزَلِهِ وَأَرْفَهُ وَأَسْلَسِهِ وَأَحْسَنِهِ نَظْمًا وَسَبْكَ وَأَصَحِّهِ مَعْنَى وَأَوْضَحِهِ وَأَخْلَاهُ مِنَ التَّعْقِيدِ وَالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ الْمُلْبِسِ أَوْ الَّذِي لَا يُنَاسِبُ، قَالُوا: وَقَدْ أَتَتْ جَمِيعُ فَوَاتِحِ السُّورِ عَلَى أَحْسَنِ الْوُجُوهِ وَأَبْلَغِهَا وَأَكْمَلِهَا كَالْتَّحْمِيدَاتِ وَحُرُوفِ الْهَجَاءِ وَالنَّدَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَمِنَ الْإِبْتِدَاءِ الْحَسَنِ نَوْعٌ أَحْصَى مِنْهُ يُسَمَّى بِرَاعَةِ الْإِسْتِهْلَالِ وَهُوَ أَنْ يَشْتَمِلَ أَوَّلُ الْكَلَامِ عَلَى مَا يُنَاسِبُ الْحَالَ الْمُتَكَلِّمِ فِيهِ وَيُشِيرُ إِلَى مَا سَبَقَ الْكَلَامَ لِأَجْلِهِ" (2)

افتتحت سورة الملك بما يدل على منتهى كمال الله تعالى: [تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] {الملك:1} وهو افتتاح بديع لندرة أمثاله في كلام بلغاء العرب، وهو يؤذن بأن ما حوته السورة يحوم حول تنزيه الله تعالى عن النقص الذي افتراه المشركون لما نسبوا إليه شركاء، وفي هذا الافتتاح براعة الاستهلال. وفعل (تبارك) يدل على المبالغة في وفرة الخير، وهو في مقام الثناء يقتضي العموم بالقرينة، أي يفيد أن كل وفرة من الكمال ثابتة لله تعالى بحيث لا يتخلف نوع منها عن أن يكون صفة له تعالى. (3)

(1) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل (4/ 579).

(2) الإتيان في علوم القرآن (3/ 363).

(3) انظر: التحرير والتنوير (29/ 9).

المطلب الثاني: التشبيه

أولاً: التشبيه البليغ

قال تعالى: [وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ] {الملك:5} .

تبين الآية مظهراً من مظاهر قدرته تعالى في الخلق، فقد زين سبحانه وتعالى السماء الدنيا -وهي القريبة منا- بنجوم كالمصابيح، وقد شبه تعالى النجوم بالمصابيح، لما يجمع بينهما من حُسن المنظر، وكما أن المصباح يُهتدى به في الظلام، فإن النجوم كذلك يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، قال تعالى: [وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ] {الأنعام:97}

وعليه ففي هذه الآية الكريمة تشبيه بليغ، حيث صرح الله تعالى بالمشبه به، وهو (المصابيح)، وحذف المشبه (النجوم) لشدة معرفته، ولم يأت بالأداة ووجه الشبه لسهولة تقديره واستحضار المحذوفات، وعليه فإن تقدير المحذوف: النجوم كالمصابيح بضوئها اللامع وحُسن مظهرها وروعة زينتها. (1)

ثانياً: التشبيه التمثيلي

1_ قال تعالى: [إِذَا أُلْفُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورٌ] {الملك:7}

تبين الآية حال الكفار من الجن والإنس حين يُطرحون في نار جهنم، بأنهم يسمعون للنار صوتاً فظيماً منكرًا وهي تغلي بهم، وقد شبه تعالى صوت لهب النار بالشهيق، والشهيق هو أقبح الأصوات وهو كصوت الحمار، (2) وهذا التشبيه فيه دلالة على فظاعة الصوت الذي يدل على شدة الغليان والغيظ .

2_ قال تعالى: [تَكَادُ تَمَيَّرُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ] {الملك:8}

تبين هذه الآية حال نار جهنم حين يُلقى فيها الكفار، فهي تكاد تنقطع من شدة الغيظ والغضب، فقولها (تَمَيَّرُ) أصلها تتميز، وتعني تتفصل وتتجزأ أجزاءً، والتعبير (تكاد تَمَيَّرُ من الغيظ) فيه تشبيه تمثيلي، حيث شبه حالة فوران النار وتساعد ألسنة لهيها، والتهام من يُلقون إليها، بحال

(1) انظر التحرير والتنوير (29 / 21).

(2) انظر: مفاتيح الغيب (30/56).

مغتاظٍ شديد الغيظ، لا يترك شيئاً مما غاظه إلاّ وصبَّ عليه جام غضبه، والغرض من هذا التشبيه، لأجل أن يتخيل السامع مدى شدة الاضطراب حتى قاربت أجزاء نار جهنم أن تتقطع.⁽¹⁾ فيها لها من صورة مروعة ! فهي تشبيه تمثيلي مركب، إذ شبَّه حال النار بحال مَنْ تميز غيظاً، ووجه الشبّه هو الهيئة الحاصلة من التهام النيران لمن عصى الله ﷻ، وهو منتزع من عدة أمور مجتمعة تتمثل في: صورة المشبه وهي هيئة النار في حال فورانها وتساعد السنة لهيبتها، ورطمها ما فيها رطماً شديداً، والتهام مَنْ يُلْقون إليها التهاماً مهولاً. وصورة المشبه به وهي هيئة الإنسان الذي يميز غيظاً ويتقصف غضباً؛ فيكاد تتفرق أجزاؤه فيتميز.

قال الرازي: "شبّه صوت لهبها وسرعة تبادرها بصوت الغضبان وحركته"⁽²⁾.

المطلب الثالث: الاستعارة التصريحية

قال تعالى: [هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ دُلُولًا فَاَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ] {الملوك:15} .

يُشبّه الله ﷻ في هذه الآية الكريمة الأرض بالبقرة على سبيل الاستعارة التصريحية، حيث استعير لفظ (الدلول) للأرض بجامع تذليل الانتفاع بها مع صلابة خَلْفِهَا، تشبيهاً لها بالدابة التي ساسها صاحبها ورؤوسها بعد صعوبة التعامل معها، فحذف المشبه به (البقرة) وصرح بلفظ المشبه (الأرض) وجاء بالصفة المشتركة بينهما، ثم قرن الكلام بما يلائم المشبه (البقرة الدلول) بلفظ (المناكب) على سبيل الاستعارة المجردة، والمناكب تخيل للاستعارة لزيادة بيان تسخير الأرض للناس، والمنكب هو ملتقى الكتف مع العضد، حيث إن فائدة التذليل هو الركوب والأكل منها، والمشى على الأرض شبيهه بركوب الدلول، والأكل مما تنبت الأرض شبيهه بأكل العجول والخرفان والأشياء المحللة، وألبانها وسمنها، وجمع المناكب تجريد للاستعارة لأن الدلول لها منكبان، والأرض ذات متسعَات كثيرة.⁽³⁾

قال الزمخشري: "المشي في مناكبها: مَثَلٌ لِفِرْطِ التذليل ومجاوَزَتِهِ الغاية؛ لأن المُنْكَبِينَ وملتقاها من الغارِبِ أرقُّ شيءٍ من البعير وأنباه عن أن يطأه الراكبُ بقدمه ويعتمد عليه"⁽⁴⁾

(1) انظر: التحرير والتنوير (25/29).

(2) مفاتيح الغيب (56/30).

(3) انظر: التحرير والتنوير (32/29).

(4) الكشاف (585/4).

المطلب الرابع: الاستعارة التمثيلية

قال تعالى: [أَمَّنْ يَمْشِي مَكْبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] {الملك:22} .

"الآية تشتمل على ثلاث استعارات تمثيلية فقوله: (أمن يمشي مكبا على وجهه) تشبيه لحال المشرك في تقسم أمره بين الآلهة طلباً للذي ينفعه منها الشاك في انتفاعه بها، بحال السائر قاصداً أرضاً معينة، ليست لها طريق جادة، فهو يتتبع بنبات الطريق الملتوية، وتلتبس عليه ولا يوقن بالطريقة التي تبلغ إلى مقصده، فيبقى حائراً متوسماً يتعرف آثار أقدام الناس وأخفاف الإبل، فيعلم بها أن الطريق مسلوكة أو متروكة.

وفي ضمن هذه التمثيلية تمثيلية أخرى مبنية عليها بقوله: (مكبا على وجهه) بتشبيه حال المتحير المتطلب للآثار في الأرض بحال المكب على وجهه في شدة اقترابه من الأرض. وقوله: (أمن يمشي سويًّا) تشبيه لحال الذي آمن برب واحد، الواثق بنصر ربه وتأييده وبأنه مصادف للحق، بحال الماشي في طريق جادة واضحة لا ينظر إلا إلى اتجاه وجهه فهو مستو في سيره. وقد حصل في الآية إيجاز حذف إذ استغني عن وصف الطريق بالالتواء في التمثيل الأول لدلالة مقابلته بالاستقامة في التمثيل الثاني"⁽¹⁾ فالمؤمن من يمشي سويًّا على صراط مستقيم، والكافر يمشي مكباً على وجهه إلى طريق الجحيم، ويا لها من استعارة رائعة!!

المطلب الخامس: المجاز العقلي

1- قال تعالى: [تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] {الملك:1} .

واليد في قوله تعالى: (بيده الملك) مجاز عن القدرة التامة والاستيلاء الكامل كما في قوله تعالى: [وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ] {الذاريات:47} وقول العرب: ما لي بهذا الأمر يدان. والمعنى أي تعاضم عن كل ما سواه ذاتاً وصفةً وفعلاً، الذي بقبضة قدرته التصرف الكلي في كل الأمور⁽²⁾ .

2- قال تعالى: [وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ] {الملك:5} .

(1) التحرير والتنوير (29/46،45).

(2) انظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (6/273)، التحرير والتنوير (29/10).

قوله تعالى (وجعلناها) مجاز عقلي علاقته مكانية، إذ إن الضمير في جعلناها عائد إلى السماء الدنيا والتي هي المكان الذي يصدر منه الرجوم، فالسمااء لا ترحم؛ إنما الذي يرحم هو النجوم التي تكتنفها هذه السماء⁽¹⁾.

3- قال تعالى: [أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ] {الملك:20}.

و(دون) في قوله تعالى: (ينصركم من دون الرحمن) أصله ظرف للمكان الأسفل ضد (فوق) ، ويطلق على المغاير فيكون بمعنى غير على طريقة المجاز المرسل.⁽²⁾

والظرفية في قوله تعالى: (إن الكافرون إلا في غرور) مجازية مستعملة في شدة التلبس بالغرور حتى كأن الغرور محيط بهم إحاطة الظرف بالمظروف. والمعنى: ما الكافرون في حال من الأحوال إلا في حال الغرور، وهذا قصر إضافي لقلب اعتقادهم أنهم في مأمن من الكوارث بحماية آلهتهم⁽³⁾.

4_ قال تعالى: [أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ] {الملك:21} والظرفية في قوله تعالى: (بل لجوا في عتو ونفور) مجازية مستعملة في شدة التلبس بالعتو والنفور حتى كأن العتو والنفور محيط بهم إحاطة الظرف بالمظروف. والمعنى: ما الكافرون في حال من الأحوال إلا في حال العتو والنفور.

5_ قال تعالى: [قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا] {الملك:28} "والمعية في قوله: (ومن معي) معية مجازية، وهي الموافقة والمشاركة في الاعتقاد والدين، كما في قوله تعالى: [مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ] {الفتح:29}، أي الذين آمنوا معه، وقوله: [وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ] {التَّحْرِيم:8} "⁽⁴⁾

المطلب السادس: الكناية

1_ قال تعالى: [هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ] {الملك:15} .

(1) انظر: التحرير والتنوير (22 / 29).

(2) انظر: التحرير والتنوير (42 / 29).

(3) انظر: التحرير والتنوير (43 / 29).

(4) التحرير والتنوير (53/29).

قوله تعالى: (جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا) كناية عن صفة الانقياد والتطويع والتذليل التي أمر الله تعالى بها الأرض للتسهيل على الإنسان، وهي صفة معنوية.

2_ قال تعالى: [قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ] {الملك:23} .

قوله تعالى: (قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) كناية عن صفة معنوية، ألا وهي النفي والعدم، ولكن القرآن الكريم لم يذكر ذلك صراحة؛ إنما عبّر عنها بتصوير فني دقيق وجميل، تاركاً التصريح، ومطوعاً الكناية لتعبير عن عدم شكر البشر لله عز وجل.

3_ قال تعالى: [قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ] {الملك:24} قوله تعالى: (وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) كناية عن موصوف، وهو (الموت)، حيث كنى الله ﷻ بمرتين من الملازمة؛ فالحشر يكون بعد البعث الذي يسبقه الموت، وقد دمج بين تذكيرهم بالموت الذي لا بد منه، وإنذارهم بالبعث والحشر.

4_ قال تعالى: [فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ] {الملك:27}

قوله تعالى (فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً) كناية عن شدة القرب، واستخدام الشرط فيه تشويق لمعرفة النتيجة. وقوله تعالى (سَيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا) كناية عن صفة القبح والكآبة والانطباع والغاية في السوء الذي يعتري الكافرين، كإيضاح مكني للصفة المعنوية الكريهة.

المطلب السابع: الإيجاز بالحذف

1- قال تعالى: [وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ] {الملك:6}

لم يذكر سبحانه وتعالى في خاتمة الآية المخصوص بالذم، فيكون المخصوص بالذم محذوفاً إيجازاً، والتقدير: وبئس المصير مصيرهم.

قال السمين: "والمخصوص بالذم محذوف، أي: وبئس المصير مصيرهم، أو عذاب جهنم، أو عذاب السعير".⁽¹⁾

2- قال تعالى: [أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ] {الملك:19} .

لم يذكر سبحانه وتعالى مفعولاً لكل من (صافات) و(يقبضن) والصف والقبض يكون للأجنحة، فيكون التقدير: صافات أجنحتهن، ويقبضن أجنحتهن.

(1) الدر المصون، (382/10).

قال السمين: "ومفعولٌ (يَقْبِضَنَّ) محذوفٌ أي: وَيَقْبِضَنَّ أجنحتَهُنَّ، قاله أبو البقاء ولم يُقَدِّرْ لـ (صافَاتٍ) مفعولاً؛ كأنه زَعَمَ أَنَّ الاصطْفافَ في أنفسها أي: مصطفةً. والظاهرُ أَنَّ المعنى: صافَاتٍ أجنحتها وقابضتَها، فالصَّفُّ والقَبْضُ منها لأجنحتها." (1)

وعبر المولى سبحانه وتعالى عن اصطفاف الأجنحة بالاسم لأنها حالة ثابتة، وعبر عن القبض بالفعل لأنه متجدد ومتكرر من الطير.

قال الزمخشري: "فإن قلت: لم قيل: ويقبضن، ولم يقل: وقابضات؟ قلت: لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة، لأنَّ الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مدُّ الأطراف وبسطها. وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك، فجاء بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل، على معنى أنهن صافات، ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح" (2).

3- قال تعالى: [أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ] {الملك: 21}

خُتِمَت الآية بقوله تعالى (بل لجوا في عتو ونفور) وهي جملة استئنافية تتعلق بسؤال مقدر محذوف يخطر ببال السامع للآيات من أول السورة، والتقدير: لعلمهم انتفعوا بمظاهر قدرة الله الواردة في السورة؟ فيأتي الجواب مبيناً حقيقة القوم أنهم لجوا في عتو ونفور.

أو أنها تتعلق بجملة مقدره تفهم من خاتمة الآية، والتقدير: فلم ينتفعوا ولم يعتبروا فيذعنوا للحق بل لجوا.

قال الطاهر: "استئناف بياني وقع جواباً عن سؤال ناشئ عن الدلائل والقوارع والزواجر والعظات والعبر المتقدمة ابتداء من قوله: (الذي خلق الموت والحياة) إلى هنا، فيتجه للسائل أن يقول: لعلمهم نفعت عندهم الآيات والنذر، واعتبروا بالآيات والعبر، فأجيب بإبطال ظنه بأنهم لجوا في عتو ونفور." (3)

وقال أبو السعود: " وقوله تعالى: (بل لجوا في عتو ونفور) منبئ عن مُقَدَّر يستدعيه المقام، كأنه قيل إثر تمام التبكيت والتعجيز: لم يتأثروا بذلك، ولم يُذعنوا للحق؛ بل لجوا وتمادوا في عتو، أي عنادٍ واستكبارٍ وطغيانٍ، ونفور أي شراد عن الحق." (4)

(1) الدر المصون، (391/10).

(2) الكشاف عن حقائق التنزيل (581/4).

(3) التحرير والتنوير (43/29).

(4) إرشاد العقل السليم (280/6).

4- قال تعالى: [وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] {الملك:25} ختمت الآية بجملة شرطية(إن كنتم صادقين)، وجوابها محذوف يفهم من سياق الآية، والتقدير: إن كنتم صادقين في دعواكم بمجيء ذلك اليوم. قال أبو السعود: "جواب الشرط محذوف، أي إن كنتم صادقين فيما تخبرونه من مجيء الساعة والحشر فيبينوا وقته." (1)

المطلب الثامن: البديع

ويتمثل في الطباق، والمقابلة، والإطناب، ووضع الموصول موضع العلم الظاهر للتفخيم والتعظيم، والسجع المرصع مراعاة لرؤوس الآيات عند بعض العلماء، كما سيتضح فيما يلي:

أولاً: الطباق

1_ قال تعالى: [الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ] {الملك:2}

الجمع بين (الموت والحياة).

2- قال تعالى: [وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ] {الملك:13}

الجمع بين (أسروا و اجهروا).

3_ قال تعالى: [أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ] {الملك:19}

الجمع بين صافات ويقبضن.

4_ قال تعالى: [أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ] {الملك:16}

الجمع بين (السماء والأرض).

ثانياً: المقابلة

المقابلة بين قوله تعالى: [وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ] {الملك:6} وقوله تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ] {الملك:12}، وهو من المحسنات البديعية.

ثالثاً: الإطناب

الإطناب بتكرار الجملة مرتين زيادة في التذكير والتنبيه، قال تعالى: [فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ] {الملك:3} ثم قال تعالى: [ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ] {الملك:4}.

وكذلك قوله تعالى: [مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ] {الملك:10} وقوله تعالى: [فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ] {الملك:11}

(1) إرشاد العقل السليم (281/6).

رابعاً: وضع الموصول موضع العلم الظاهر للتفخيم والتعظيم، قال تعالى: [تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ] {الملك:1} أي له الملك والسلطان، والتصريف في الأكوان.

خامساً: السجع المرصع مراعاة لرؤوس الآيات، مثل قوله تعالى: [فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ] {الملك:17}، وقوله تعالى: [فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ] {الملك:18}، وقوله تعالى: [إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ] {الملك:19}، ومثل قوله تعالى: [إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ] {الملك:20}، وقوله تعالى: [بَل لَّجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ] {الملك:21}، الخ.

المطلب التاسع: الأسلوب الحكيم

قال تعالى: [وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ] {الملك:25،26}.

"وأمر الله رسوله بأن يجيب سؤالهم بجملة على خلاف مرادهم بل على ظاهر الاستفهام عن وقت الوعد على طريقة الأسلوب الحكيم ، بأن وقت هذا الوعد لا يعلمه إلا الله ، فقوله : (قل) هنا أمر بقول يختص بجواب كلامهم وفصل دون عطف بجريان المقول في سياق المحاورة ، ولم يعطف فعل (قل) بالفاء جرياً على سنن أمثاله الواقعة في المجاوية والمحاورة ، كما تقدم في نظائره الكثيرة وتقدم عند قوله تعالى: [قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا] {البقرة:30}»⁽¹⁾.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، أما بعد فهذه أهم النتائج والتوصيات التي توصل إليها الباحث:

أولاً: أهم النتائج

- 1- القرآن الكريم مستودع الأسرار الإلهية، فما من حرف من حروف القرآن الكريم ولا لفظ من ألفاظه إلا لوجوده معنى، ولتكراره مغزى وله جملة من الدلالات.
- 2- التأكيد على إعجاز القرآن البياني؛ إذ إن سورة الملك شأنها شأن سائر السور تشتمل على أساليب بيانية ذات أغراض بلاغية مختلفة، لا يصلح غيرها في موضعها، مما يدل على أن القرآن الكريم من لدن حكيم خبير.
- 3- إن الأسلوب القرآني يستأهل التأمل والتدبر والمزيد من أعمال الفكر، إذ إن النظرة المتعجلة للأسلوب القرآني لن توقف صاحبها على هذه الأسرار العظيمة والمفاهيم البلاغية الكامنة في تراكيب الأسلوب القرآني، والله سبحانه وتعالى يقول: [أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ

(1) التحرير والتنوير (49/29).

أَقْفَالُهَا {محمد:24}، ويقول أيضا: [أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا] {النساء:82} .

4- كل كلمة من كلمات القرآن الكريم في موضعها التي هي فيه معجزة من ناحيتين، الأولى من ناحية المبنى والثانية من ناحية المعنى الذي اشتمل عليه هذا البناء.

ثانيا: أهم التوصيات

- 1- أوصي علماء الإعجاز البياني للقرآن الكريم بعمل موسوعة علمية شاملة للظواهر البلاغية والأغراض البلاغية للتعبير الجميلة التي اشتملت عليها جميع سور القرآن الكريم.
- 2- أوصي علماء الإعجاز البياني للقرآن الكريم، وعلماء البلاغة الذين يدرسون الإعجاز البياني للقرآن الكريم وعلوم البلاغة في المراحل المختلفة بالتركيز على الشواهد البلاغية العظيمة التي اشتمل عليها القرآن الكريم.

المصادر والمراجع

- 1- الإتيقان في علوم القرآن: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، قدم له وعلق عليه الأستاذ محمد شريف سكر، وراجعته الأستاذ مصطفى القصاص، دار إحياء العلوم، بيروت، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الثانية 1416هـ - 1996م.
- 2- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: القاضي أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، المتوفى سنة 982هـ، وضع حواشيه عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1419هـ-1999م.
- 3- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير وبهامشه نهر الخير على أيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري، دار لينا، الطبعة الأولى 1423هـ-2002م.
- 4- الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني، شرح وتعليق وتنقيح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، منشورات دار الكتاب اللبناني، الطبعة الرابعة.
- 5- بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي: أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي، تحقيق الدكتور محمود مطرجي، دار الفكر بيروت.
- 6- البحر المحيط: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1422هـ-2001م.

- 7- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة: أبو حفص سراج الدين عمر بن زين الدين قاسم ابن محمد بن علي الأنصاري النشار، شرح وتحقيق الأستاذ الدكتور أحمد عيسى المعصراوي، الطبعة الأولى 1429هـ - 2008م وزارة الأوقاف والشؤون الدينية قطر.
- 8- البرهان في علوم القرآن: الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة التراث، القاهرة.
- 9- التسهيل لعلوم التنزيل: الشيخ الإمام العلامة الحافظ المفسر خادم القرآن العظيم محمد بن أحمد ابن جزى الكلبى، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 1393هـ-1973م.
- 10- التعبير القرآني، فاضل السمراي، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.
- 11- تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997م.
- 12- تفسير مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): الإمام فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1421هـ - 2000م.
- 13- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق عبد الرحمن بن معلاً اللويحق، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى 1420هـ - 2000م.
- 14- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420هـ - 2000م.
- 15- الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1423هـ - 2003م.
- 16- خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني: محمد أبو موسى، دار التضامن، القاهرة، الطبعة الثانية 1400هـ - 1980م.
- 17- الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب، بيروت.
- 18- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي المتوفى سنة 756هـ، تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى 1414هـ - 1994م.
- 19- دلائل الإعجاز في علم المعاني: أبو بكر بن عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني النحوي، قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، الطبعة الثالثة 1422هـ - 2001م.

- 20- روح البيان في تفسير القرآن: الإمام الشيخ إسماعيل حقي بن مصطفى الحنفي الخلوتي البروسوي، ضبطه وصححه وخرج آياته: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1424هـ - 2003م.
- 21- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: العلامة أبو الفضل شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- 22- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي، تحقيق محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1415هـ - 1995م.
- 23- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: الإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني، حققه وخرج أحاديثه وفهرسها سيد إبراهيم، الطبعة الأولى 1413هـ-1993م.
- 24- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم جار الله محمود ابن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- 25- لباب التأويل في معاني التنزيل: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، دار الفكر، بيروت 1399هـ - 1979م.
- 26- لسان العرب: الإمام العلامة جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري الإفريقي المصري، حققه وعلق عليه ووضع حواشيه عامر أحمد حيدر، راجعه عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1424هـ - 2003م.
- 27- المُنغى في توجيه القراءات العشر المتواترة، محمد سالم محيسن، دار الجيل، بيروت، مكتبة الكليات الأزهرية.
- 28- من بلاغة القرآن، أحمد أحمد عبد الله الببلي البدوي (المتوفى: 1384هـ)، الناشر: نهضة مصر، القاهرة، عام النشر: 2005.
- 29- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: الإمام برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ - 1995م.